

سماسرة الدم

زين الحردان

مركز
المحروسة
للنشر و الخدمات الصحفية و المعلومات

روايـــــة

سماسرة الدم

زين الحردان

رقم الإيداع : ٢٠١٣/٢٣٠٩
الترقيم الدولى : ٣-٤٨٥-٣١٣-٩٧٧-٩٧٨

الطبعة الأولى ٢٠١٣



قطعة رقم ٧٣٩٩ ش٢٨ من ش ٩ - المقطم - القاهرة
ت، ف : ٢٥٠٧٥٩١٧-٠٢-٠٠٢
e.mail : mahrosacenter@gmail.com

رئيس مجلس الإدارة : فريد زهران
الغلاف : عبد الله رجب

الطبعة الأولى ٢٠١٣

روايـــــة

سماسرة الدم

زين الحردان

الطبعة الأولى ٢٠١٢

بطاقة فهرسة

فهرسة أثناء النشر إعداد إدارة الشئون الفنية

الحردان، محمد زين.
سماسرة الدم / رواية، محمد زين الحردان - ط١.
القاهرة : مركز المحروسة للنشر والخدمات الصحفية والمعلومات، ٢٠١٢.
ص ١٦٨؛ ١٤ × ٢٠سم؛
تدمك : ٣ ٤٨٥ ٣١٣ ٩٧٧ ٩٧٨
١- القصص العربية
أ- العنوان
٨١٣,٠١

رقم الإيداع : ٢٣٠٩/ ٢٠١٣

- **نحنا لسه بخير، والبلد بخير.**

عندما استمرّ في صمته المطبق، رجّحت أنّه لم يسمع ما قالت، أعادت قولها، بيد أنّه لم يعلق. كان يقضم أظفاره بعصبية، عكر المزاج، كدر النفس، وعيناه تجوسان الفضاء بقلق.

- **البلد منخوبة[١] . شفطم[٢] دمها، دمرونا ولد الـ.."**

أطبقت يدها على شفتيه، سكت، استنشق عطر يدها، لثم أصابعها الغضة.

- **"والله عرفت شلون تصيدني".**
- **ولو تلميذچ[٣] يا أستاذة.**
- **ما رح أمنعك، احكي على كيفك.**
- **يا ستي الجماعة أولاد قـ..**

رمعت بسرعة أطبقت يدها على فمه فأشبعها لثماً.

- **هذه الشجرة شاهدة على وزرنا.**
- **وكْلي الله يا مسعدة[٤] !!.**
- **خاف ربك يا عبد الرحمن هذا الشي مو حقنا!!.**

---

[١] المنخوب: الذي ذهب خيره فصيحة وفي محكي الرقة يراد بها كل ما نزع لبه وخيره.

[٢] شفطم: شفطوا؛ تستبدل واو الجماعة بميم جمع الذكور في الفعل الماضي مطلقا بمحكي الرقي وتثبت مع المضارع دوما؛ يشفطون.

[٣] چ: هذا الحرف هو الكاف المكشكشة عند العرب قديما(كشكشة بني أسد) ولا تزال الكشكشة سارية في لهجة أهل الرقة حيث يلفظ من مخرج يمزج بين الكاف والجيم والشين في بعض الكلام ويلفظ فصحيحا في بعض المفردات والمسألة سماعية لا ضوابط لهجية لها.

[٤] المسعد والمسعدة من ألفاظ الأضداد فقد يراد بها الشيء أو نقيضه في محكي الرقة أي يا سعيد أو يا تعس حسب سياق الكلام.

اقترب منها قبص[٥] خدّها بأصابعه، جسّ برطاميها[٦]، لزّها بقوة، أهرق[٧] قبلات حرّى على جيدها، التقم شفتيها هصرهما بقوة، حاولت التفلت، دفعته برفق، التحم بها أكثر، أدخل يده عبر زيقها دلسها تحت حمّالة النّهدين دعكهما بقوة فتأوهت أنّت أنيناً ناعماً:

- **عبد، خلص!!.**
- **اركَحِي[٨] حَاجْ تحوصين.**

أخرج يده من تحت قميصها، دحسها تحت محزمها، استيقظت كلّ مجسّات أنامله، تفتحت عيون أصابعه، ورأت في الظلمة ما لا يراه البصر، تحسّس بطنها الخميص، أوغلت يده استفالاً بهدوء، قبضت على يده بقوة نتر يده موغلاً أكثر...

- **عبد الرحمن الحمود الدّخيل...**

تردّد صدى الاسم في المكان بقوة كهزيم الرّعد، تلاشى الصّدى، ساد هدوء ملأ المكان، ارتعد من شدّة الخوف، زلزل الصوت كيانه، استيقظت آلامه مندفعة نحو دماغه، انتابته رجفة قويّة، تململ، انتفض واقفاً يتراقص في الزنزانة كمنديل مشرور[٩] ترعرعه الرّيح، استدار نحو الجدار، وضع يديه خلف ظهره. انزلق المزلاج الخارجي للباب المصفح، تغلغل الصّوت فيه سياطاً تتلوّى، تسرّب الضوء، ليلفّ الجدران الكالحة، انفتح الباب، تراءى له على الجدار ظلُّ شبح ضخم خلفه دون أن يجتاز الباب، تراجع بهدوء، وهو يدفع يديه خلف ظهره.

---

[٥] القبص التناول بأطراف الأصابع.
[٦] البرطام الشفة الممتلئة.
[٧] أراق.
[٨] ركح، ركن؛ لبث. فصيحة ما تزال متداولة بكثرة في عامية الرقة.
[٩] المشرور: المنشور.

- **قولْ حاضر سيدي يا ابن الشرموطة.**
- **حاضر سيدي.**
- **ليش ما رديت من أول مرّة.؟**
- **چنت[10] نايم سيدي.**
- **آخ لو كان الأمر بايدي لكنت حطيتك على خازوق، يطلع من قحف راس أمك.**

شعر بالقيود الباردة تكبـّل يديه بإحكام، رفع عنقه عالياً، لفّ العنصر العصابة على عينيه، جرّه من كتفه في الممرّ الطويل، وهو يتخبط مثل شاة عشواء متذكراً حلمه بإيناس متسائلاً عما أعادها إلى ذاكرته.



تعالى رنّين هاتفها الخليوي، وهي تصعد الدّرج، ابتسمت وقد تورد خداها الكلثمان[11] بحمرة طفيفة، فتألقا كبتلتي ورد جوري ، حين نظرت إلى الرّقم، أعادت الجهاز إلى الحقيبة، أدخلت أصابع يديها في قصتها[12]، رفعت شعرها عاليا للخلف، بدا كأنه وردة سوداء شنفتها الريح، حركت رأسها كعصفور ينفض البلل فتناومت خصل شعرها فوق بعضها، لتعطيها جمالا طبيعياً، دلفت إلى العيادة. وهي تتمنى أن يكون المقعد شاغراً، لكنها أحبطت عندما وجدت شاباً يجلس عليه همت بالجلوس على آخر ، توقفت تتفحص الجدران المصقولة بعناية بلون أزرق، يشبه زرقة الماء، يناغمه لون بلاط الأرضية، بتدرج لونيّ نظرت إلى السقف المزدان بأفاريز ورسوم جبسيه معتقة بلون أزرق أيضاً، دارت نصف دورة، اقتربت من

---

[10] چنت: كنت.
[11] الكلثم: لحيمة الخدين.
[12] القصة؛ النصة، شعر مقدم الرأس.

اللوحات الجدارية التي علقت بطريقة متناسقة، كانت في معظمها صوراً بالأبيض، والأسود لنهر الفرات قبل الغمر، وصوراً لفلاحين وفلاحات يعملون في الأرض، وإلى جانبها على الجدار الآخر صور بالزي الرّقّي الأصيل لرجال ونساء بأوضاع مختلفة وصور لمحاربين قدامى وأطفال صغار يركضون متناثرين حول القبور يلتقطون السكاكر التي ينثرها ذوو الموتى أيام الأعياد، توقفت عند لوحة بريشة مي بالألوان الزيتية للنهر وقلعة جعبر حيث تتناثر حولها البيوت الطينية كالثآليل على جانبي سرير النهر، لم تكمل تمعنها باللوحة على الرغم من الشعور الغامض الذي انتابها، وهي تحاول قراءة معالم اللوحة، توضع الظل والنور والتفاصيل الصغيرة التي عملت عليها مي بعناية لتنقل الصورة كما أرادها محمد تماماً حين طلب إليها رسم البيئة الفراتية القديمة، ابتعدت عندما شغر مقعدها الأثير حين اقترب الشاب الذي شغل مقعدها من الرّجل العجوز الذي أخرج الدّواء، ليحدّث الشّاب عن معاناته مع الأطباء. تختار هذا المقعد لأنّه يقابل الباب الدّاخلي ومنه تتاح لها رؤيته يتنقل بين سرير الفحص ومكتبه. أخرجت كتاباً صغيراً، راحت تقرأ، كانت تسترق النظر إليه عبر الباب الموارب، دون أن تشعر، تذكرت تعارفهما الأول في بيت مي، أحست بالبغض تجاهه، عندما كان يتهجم على الصّحافة الثقافية، والأدبية قبل أن يعرف أنّها صحفية. أحاديث مي التي تفرط في الحديث عنه كلما قابلتها، وقد قفزت إلى رأسها جملة قرأتها ذات يوم (عندما نستذكر شخصًا ما فإننا لا نستعيد صورته في ذهننا بل نتذكر أحاسيسنا ومشاعرنا حياله) تفطن لنفسها فتعاود قراءة ذات السّطور التي سبق وقرأتها. كانت أفكارها متناهبة تفكر به حيناً وتعود لتبحث عن مسوّغ لحضورها حيناً، وقد أزعجها عدم إنهائها الرّواية لتتذرع بالمجيء لإعادتها.

لم تركد زوبعة المشاعر التي اجتاحتها نحوه فرصانته وثقافته أحلاه في موقع مقرب من نفسها، محاولته التودد إليها ليعتذر عن تهجمه على

الصحافة والفن، جعله مقرباً أكثر، لم يكن يشعر أنّ وتيرة تودّده لها، قد باتت ملحوظة لها، تكررت زياراتها لعيادته مرافقة لأمّها المريضة، فاستمرأت هذا الاهتمام، لكنّها افتقدته هذا اليوم فقد خرج المراجعون، ولم يطلب إليها الدّخول، فكرت بالانسحاب، ردّاً على تجاهله، لولا أنّ الممرّضة التي همّت بالانصراف باغتتها بطلب الدّخول. دلفت بهدوء، لم يشعر بها، نقرت بأظفارها زجاج المكتب. رفع رأسه ببطء، فوجئ بها، نهض بسرعة فارداً يديه، احتضن يدها النّحيلة النّاعمة دار حول المكتب وجلس قبالتها، أشعل سيجارة عبّ نفساً طويلاً، نفث الدّخان على شكل دوائر صغيرة تتلاحق صاعدة في الهواء، لم يستطع الإقلاع عن هذه الهواية منذ أن تعلمها في مرحلته الجامعية، يستمتع بمراقبة الدّوائر وهي تتلاشى في الهواء واحدة بعد أخرى، محاولا تخفيف حزنه وقلقه، خالجها شعور بأن ما في نفسها قد بات مكشوفاً له، فادعت على الفور أنها كانت تمرّ بالقرب من هنا رنّ هاتفها فرأت أن تأتي بدل أن تردّ على مكالمته فبادرها بنظرة مبرهمة وهو يهز رأسه، شعرت أنها تخترقها وتنفذ إلى أعماقها لتجلو حقيقة مشاعرها ، أحمرّ وجهها خجلاً، عندما أدعى أنّه سمع صوت هاتفها ولم تكن تعرف أنّه يمازحها، ردّت بصوت خفيتٍ وهي ترنو إليه حادجة:

- **طيب يا سيدي جاملني وتظاهر بالتصديق.**
- **المرأة تصدّق أنّها جميلة وإن كان القائل أعمى"**

أطرق يتأمل رخام الأرض، بينما انشغلت بحقيبة يدها، أخرجت صحيفة مطويّة، مدّتها إليه، تناولها بحماسة بحث عن مقالتها انشغل بقراءتها، وقفت، دنت من النافذة، النافذة التي تصورته يقف خلف زجاجها الشفيف كل يوم، حالماً برؤيتها قادمة إليه.

النافذة التي طالما تخيلته يقف خلفها بعد أن يودعها إلى المدخل، يعود مسرعاً لاهثاً، يقف وراء الزجاج الشفيف، وأنفاسه تنفث بخارها على

الزّجاج لتشكل غبشاً، يكتب عليه بأصبعه "أحبك" ثم يسارع بمسحه بردنه ليراقبها وهي تغدو ذاهبة، شغلتها تصوراتها عن المشهد المتحرك التي تؤطره النافذة. مشهد يتكرر يومياً في شكله العام، طريق رئيسي، تلقي عليه مصابيح خافتة إنارة ضئيلة، تسطع أكثر، وتنتشر عند مرور السيارات التي أشعلت مصابيحها. باعة على الأرصفة مازالوا ينتظرون زبائن بعد الغروب على قلتهم، ومن بعيد فوق المحلات التجارية تظهر البيوت الشعبية البسيطة كابية، يلفها ظلام دامس، توصوص مصابيحها عندما تصر توق عينيها، فتتشكل لها ذيول ضوئية كشهب طويلة، وإذا أنعمت الرؤية ثانية، تراها كنمش أصفر على السّواد الحالك الذي يلف المدينة. استدارت إلى الخلف، لتتأكد من أنّه ما زال يقرأ، اقتربت من المقعد الدوار الذي تغطيه قطعة سدو[١٣] يدوية مخططة باللونين الأسود والأحمر القانئ، برمت الكرسي، فدار عدّة دورات، أوقفته، استقرت عليه أدارته بنفسها ذات اليمين وذات الشمال، أنزلت رجليها إلى الأرض لتوقفه عن الدّوران، لم تكن بها رغبة لمعرفة الكتب المتناثرة على الطاولة ليقينيها أنّها كتب تشريح وأمراض، لكنّها مدت يدها جذبتها دفعة واحدة، استغربت وجود كلّ هذه الكتب فوق طاولته وكلها كتب تراث وشعر، أزاحتها جانبا لتمعن النظر بصور أسعد تحت الزجاج الذي يغطي سطح المكتب. استدارت نحو الجهة اليمنى على مقربة من سرير الفحص حيث الخزانة التي كدست فيها الكتب بعناية فائقة تنم عن ذائقة فنية عالية، شعرت بلمسات أنامل مي، تترك أثرها البديع في أماكن متفرقة من العيادة التي بدت أقرب إلى متحف تراث شعبي.

عندما رأته يطوي الصحيفة ويضعها على الطاولة الصغيرة بدا لها أشد كآبة وأكثر حزنا، فبادرت بسؤاله عما ينتابه فأجابها:

---

[١٣] نسيج يدوي اشتهر في الحقبة السابقة ينسج من شعر الماعز .

- **ليس.**

ما إن سمعت هذه الكلمة، حتى عرفت أنّه لا يريد الخوض في الموضوع، فتلك طريقته المعتادة في التجاهل لتغيير الموضوع. شعرت بعدوى الكآبة، والضيق تنتقل إليها، وهي ترقب حالته المأساوية، فقد تبدّى لها شخصاً آخر غير الذي عرفته في لقاءاتهما القليلة الأخيرة. بعد أن توطّدت بينهما صداقة تمتزج بإعجاب غير واضح المعالم ترده حينا لطبيعة شخصيته، ثقافته، سخريته المائزة، سوداويته، رؤيته المتبصرة التي زعزعت بعض قناعاتها، أو ما كانت تدفنه بأعماقها على أنّها قناعات، تبعدها عن ساحة الشعور والتفكير، عندما انتهى من القراءة كانت متشوقة لسماع رأيه ونقده ولكنه بدل ذلك انبرى يهاجم الإعلام الذي وصمه بالكذب وأنه مناشير تمجيد، وتزييف، وتجميل لوجه النظام القبيح، وفاجأها بقوله: المواد الإعلامية نوعان: مادة يبحث عنها القارئ، ومادة تبحث عن قارئ، والصنف الأخير حال إعلامنا.

- **موادي لا ترفض ، قد تحذف كلمات منها، لكنّها ترى النّور.**
- **الذي يرى النّور هو ما يريدون.**

حدثها بإسهاب عن الوضع السياسي، والاقتصادي الزّاهر في الخمسينيات والذي تراجع إلى درجة كبيرة في العقود الأخيرة، كانت ترمقه بعينين مبهورتين بعثا فيه شعوراً بالغبطة، والفرح فاستطرد يقارن بين وضع البلد والبلدان الأخرى التي كانت في نفس وضعه والتي حققت مواقع متقدمة اقتصادياً، واجتماعياً، وتعليمياً، فلم تتمالك نفسها وقالت مستغربة:

- **معقول؟؟!.**
- **بل أكثر، يقولون إنّ التّعليم تطور، وهذا كلام يجافي الصّواب، الطّب تراجع، الثّقافة تحوّلت إلى إيديولوجيات تمجّد النّظام،**

حتى المناهج تركّز على تلك الإيديولوجية أكثر مما تركّز على الحالة العلميّة.

- **لكننا كنّا نعيش حالة انقلابات، وعدم استقرار، أمّا الآن فنحن ننعم بحالة استقرار سياسي قوي في الدّاخل والخارج.**
- **هذا ليس استقراراً، الاستقرار لا يكون بالبطش، والقمع، الانقلاب لا يحلّ بانقلاب، ثمّ يصفي معارضيه ويحكم بالحديد والنّار طيلة خمسة عقود، وهم يزعمون أنّ الأمور تحلّ بصناديق الاقتراع نحن ليس لدينا اقتراع لدينا صناديق معدة دائما لكل أمر.**
- **أنت تغالي كثيراً.**

أشعرته جملتها الأخيرة بالتحدي، فانهال عليها بأسئلة متلاحقة، عما إذا كانت تستطيع الكتابة عن مواضيع تخص الدخل، الموازنة، النفط، الجيش الذي يدار بفكر وممارسة طائفية!!. باغتها بأسئلة عن وضع الاقتصاد المتروك بأيد مقربين يتحكمون برقاب العباد، فباتوا يمتلكون موازنات تفوق موازنة الدولة، أُسقط الأمر بين يديها تلعثمت، شعرت بالحرج، طأطأت رأسها، باغتها الخوف، لأنّها تعرف مراميه، وتدرك أنّ حديثاً كهذا، يبعث قائله، بل وسامعه وراء الشمس، طوت الصّحيفة، رشفت فنجان قهوتها، وسألته:

- **كيف حال ابنك وزوجتك..!؟؟**
- **حتى الإعلام كان في حال أفضل، كان يمارس دوره في الرّقابة، والبناء دون خوف، لم يكن رؤساء التّحرير خرّيجي فروع أمن مدرّبين على حساسّية مفرطة تجاه أيّ كلمة، قد تكون لفظاً عابراً.!؟**
- **ليس.**

ابتسم وهو يرمقها بنظرة حادة وقال:

- **ليس...ليس.**

سحب النَّفس الأخير من سيجارته ونفثه في سماء الغرفة فصدحت بصوت رخيم.

- **"مثلك يا دخان لأرگى**[١٤] **برم للغيم".**

تلقف تلك الجملة التراثية من فمها، كسقط من السماء، تداركه ليفتح موضوع التراث والإعلام والذي مارس لعبة مغرقة في الحقد في تجاهل التراث الغني لمنطقته، بغية إصعاد تراث مناطق أخرى، لغاياتهم، لسلخ الناس عن جذورهم، لكنّه توقف عندما أخرجت هاتفها المحمول لتنظر إلى السّاعة فأرجأ الحديث، صمت لحظة ثمّ قال وهو ينفث الدّخان من أنفه وفيه:

- **كيف التقطت هذه الجمل التراثية.؟!**

- **ليس.**

- **بالمناسبة لماذا تركت الدراسة في المعهد العالي.؟!.**

خفضت رأسها قليلاً توسعت حدقتا عينيها، بدا الارتباك ظاهراً على محياها، وهو تقول بابتسامة يخالطها حزن وآسى:

- **ليس.**

- **صحيح كيف حال الوالدة!!؟.**

- **تحسنت كثيراً، لذا مررت لأشكرك على اهتمامك.**

- **فقط؟!**

---

[١٤] گ: هذا لفظ حرف القاف في لهجة الرقة حيث يلفظ جيماً مصرية في كلمة وقد يلفظ فصيحاً في أخرى أو يقلب جيماً وقد ورد سماعياً لا قواعد لهجية تضبطه .

قال هذا، وهو يغمز لها بعينه، فارتبكت أكثر، كأنّها استشعرت أنّه يحاول قراءة ما يجول بأعماقها، مدّت يدها على عجل في تصرّف انفعالي، صافحته، خرجت مسرعة لتهرب من نظرته العميقة، نزلت الدّركات عجلى، ولما وصلت الرّصيف حاولت مقاومة رغبتها بالنّظر إليه عبر النّافذة، لم تستطع، أرادت أن تعرف إن كان يراقبها نظرت إلى النّافذة، سرَّتها رؤيته يرقبها، خيّل إليها أنّه يبتسم ابتسامة تحجب حزناً عميقاً، وسرعان ما استقلت سيارة النّقل الدّاخلي جذلى .

۞۞۞

الممرّ طويل يفضي إلى جهنم، وأشد ما كان يعذبه، المشي في أرض يهماء مجهولة المعالم والأبعاد تزيد عذاباته الصّفعات التي يتلقاها من الغادين، والرّائحين من عناصر الأمن. أوقفه العنصر الذي يقتاده في مكان، حدّس أنّه غرفة التّحقيق فقد كانت غابّة[15] برائحة اللحم والدم والعرق الذي تساقط من أجساد من سبقوه، وعندما اشتم رائحة التبغ العابقة سرت فيه قشعريرة قوية، أصابته بخدر لذيذ، أنساه اللحظات التي تسبق التحقيق، والتي تصبح أشدّ وطأة من جلسات التعذيب، وهو ينتظر التّهم التي ستوجه إليه. ففي كلّ جلسة يتفتق ذهن المحقّق عن تهمة جديدة. تململ قليلاً، همّ يباعد بين قدميه، ليجعل ثقل جسمه على رجل، ليريح الأخرى بالتناوب، لكنه تراجع خشية أن يكون العنصر على مقربة، أو أنّه لم يغادر بعد، محاولاً تصيّده، ليصفعه في تلك اللحظة، وخاف أن يدخل المحقق على حين غرة فيصفعه صفعة قوية. أكثر ما راوده رغبة بحك عينيه تحت العصابة التي تلتصق بهما، تضغط عليهما بقسوة، تزداد قسوتها، والتصاقها

---

[15] الغب: رائحة اللحم ؛ فصيحة تستخدم في محكي الرقي للدلالة على وجود رائحة أو دخان كثيف في مكان وخاصة إذا كان مغلقا.

بتشرّبها العرق الغزير الذي ينزّ من رأسه، وجبينه رغم برودة الجو. العصابة وحدها كانت وسيلة تعذيب متكاملة المواصفات، فرائحة العرق التي تشربتها من بشرة عشرات ممن سبقوه بعثت فيه شعوراً مقيتاً بالاشمئزاز. يتسرّب العرق فوق جبهته كأفاع تتلوى في أخاديد جبينه التي حفرتها السنون مبكراً، يتغلغل إلى عينيه، مثيراً حكّة، وحرقة كحصرم يفتّ في العينين. تناهى إلى سمعه وقع أقدام، تتصاعد، وقف باستعداد متأهباً متخوفاً من جِمع[16] قد يودي بأحد أسنانه.

اسمك:

- **عبد الرحمن الحمود الدّخيل.**
- **قول سيدي، ولك حمار.**
- **دراستك؟!**

ماجستير، سيدي.

- **يا حمار!! دراستك مو مرضك، ماجستير، روماتيزم ما يهمني.**
- **الماجستير شهادة علمية، سيدي.**

ردّ ساخراً يقلـّد لهجته:

- **الماجستير دراسة، شهادة علمية..مفكرني حمار مثلك ما بعرف الماجستير شهادة علميّة، بس بعد البكلوريا ولا قبل.؟!.**
- **بعد المرحلة الجامعية سيدي.**
- **بعرف، بس كنت عم اختبرك، ليك أنا المساعد وفيق أبوعلي أكيد سمعت عني، خليت الخرسان يحكوا حتى الأصنام عندي بتحكي باللغة العربية وإن كانت مصنوعة بدول أجنبية مثل فرنسا والصومال.**

---

[16] الجمع: اللكمة؛ أو الضرب بأسفل اليد وأصابع الكف مقبوضة فصـيحة ما تزال متداولة بكثرة في عامية الرقة..

جاراه عبد الرحمن مسلما بصدق كلامه، وهو يجاهد في كتم ابتسامته، عندما كانت الأسئلة تتراكم يناقض بعضها بعضاً يتهمه أحياناً بالانتماء للمجتمع المدني ثم يعود ليصمه بالسلفية والإخوان وهو ينفي كلّ ما يوجه له جملة وتفصيلا حتى باغته بسؤال فجّ:

- **ولك صحي شو الفرق بين الجهادي والتقليدي.؟! ولاه حيوان عرعوري.!**
- **أنتم أدرى سيدي.**
- **طيب ليش طلعت مظاهرة يا ابن الكلب!!؟. وأنت موظف بالدّولة، عم نعطيك معاش، وزيادة راتب وترفيعات، وطبابة.؟! يعني مواطن مدلل. مع إنكن ما بتستحقوا تعيشوا أصلاً، ورغم هيك عملناكن بشر وانتو حيوانات .**
- **سيدي آني[17] جابوني بالغلط.**
- **كزاب[18] ، بدكن حرية يا عرصات.؟؟ عم تاكلوا، وتشربوا، وتسافروا على كيفكن، شو بدكن حرية اكتر؟!.**
- **-الحرية مفهوم واسع وكبير، وهذا مفهوم بهيمي للحرية، الحرية مو لبس وأكل ونزهات.**
- **مفهوم بهيمي يا ابن البهايم!! وعم تحكي معي بالفصيح كمان!! طيب... هذه ليست حرية إذن بدل أن تشكرونا لأننا علمناكم بمدارسنا وجامعاتنا مجانا تخرجون للشارع لشتمنا ماذا تريدون بعد هذا؟!**
- **سلامتك سيدي.**

---

[17] آني هو ضمير الرفع المنفصل (أنا) في محكي الرقة.

[18] كذاب: والحضر غالباً يقلبون الذال زايا باستثناء أهل الفرات والسويداء فهم يحافظون على الحروف اللثوية سليمة.

نهض فجأة فوقف عبد الرحمن منتصبا صرخ المحقق على العنصر اللابد كضبع خلف الباب فهرع إليه مسرعاً فك وثاقه المعدني ليبصم على المحضر وعندما تساءل عمّا سيبصم عليه لطمه العنصر لطمة قوية على فمه، سال الدم تناول أصبعه ورصّه على لبادة الحبر ثم طبع البصمة حيث أشار المحقق الذي قال وهو ينظر إلى حسان:

- **"شوف الخرا" بدو يشوف أقوالو، مفكر حالو بسويسرا!!.**

دفعه أمامه بقوة، كبّل يده اليسرى ثانية بسلسة طويلة، أطلق يده اليمنى، جرّه بقوة، ارتفعت يده، ارتفع جسده متدلياً كشاة في محل جزارة، انهال عليه بالسّوط حتى أدماه. كانت السّياط تلسع، تلتف كأصل[١٩] تنغرس نسائل السوط كأنياب عطشى تنفث سمها في اللحم كأنّها تطلب تبلاً، تلتحم كحبال نار حول جسده شبه العاري، تكوي اللحم كيّاً قاتلاً في الأماكن التي تمزق القميص عنها وتمازج باللحم والدم الخاثر والعبيط.

- **حسان!!. جرّب طرق علمية جديدة، ولك اللي اخترعتاه بهالمجال مارح يعرفو العالم بعد ألف سنة.**
- **معلوم سيدي، مفكرين حالن بس هني عم يكتشفوا ويخترعوا، ولك أمريكا بجلالة قدرها لمّا بتعجز عن اعتراف سجين، بتبعتو لعنا، بجلسة وحدة، بصير معه إسهال بالحكي.**

ركله حسان بقدمه على خصيتيه فدارت الدّنيا حوله دورات كثيرة، جاشت نفسه، كاد يهوع أمعاءه الخاوية، تعالى زبد من فيه، غدت أعصابه واهية كخيوط عنكبوت، غامت الدّنيا التي مازلت تدور حوله كسديم وغيوم، ودخان مبهمة المعالم. أرخى السلسلة دفعة واحدة، فتداعى إلى الأرض كجثة هامدة، تحرك بصعوبة، حاول النّهوض، لم

---

[١٩] الأصل: جمع أصلة وهي من خباث الأفاعي.

يستطع، لكن الرّكلات المتوالية جعلته يتقاوى متحاملاً على ضعفه، وألمه. وقف راجف البدن، دفعه حسان نحو طاولة كبيرة كبّه على وجهه شابك سيوراً جلدية حول خصره، صعد فوق الطّاولة داس على رأسه بقوة، جلس على ظهره، أمسكه من شعره، جرّه نحوه بعنف، أحسّ عبد الرّحمن بألم لا يوصف، خيُّل إليه أنّه يسمع طقطقة جدار بطنه وأمعائه، ضكّ صدره حتى كاد ينطبق على ظهره، توقف التنفس كليةً، تصاعد الألم موجات متلاحقة، انْحَلَتَ جزء كبير من شعره بين أصابع حسان، شعر بفقرات ظهره تصطك يكاد يكسر بعضها بعضاً، تصاعد ألمُهُ تقوّسِ ظهره، بات لا يطاق و لا سبيل إلى وقف الألم بأي طريقة كانت، أحسّ بدنو أجله، فقد حيله، لم يكمل التّشهد بقلبه عندما غام كلّ شيء، وغاب كلية، يسبح في موجة وجع عاتية، أُسدلت سحابة سوداء على بصره، وبصيرته، أحسّ بقوة تسحبه نحو الفضاء الفسيح، تحلق به عالياً، عالياً تبلغ عنان السماء، و ترميه من أعاليه إلى الأرض ليرتطم بها ككدس[٢٠] لحم.

❁ ❁ ❁

عندما عاد إلى البيت ووجد جيداء تصطنع النوم دلف إلى غرفة الضيوف ثوى على الأرض محتبياً يستذكر ما دار بينه وبين توق، شعر بارتياح لعدم استفاضته وأنّه لم يخبرها كل ما في قلبه من سم زعاف زرعوه بقلبه لم يبح لها بما قاسى وعائلته من مآسٍ بسبب الفساد الذي راكمه النظام. منذ مرحلته الابتدائية ذاق مرارة التمييز حين يكون الأول على صفه فيفاجأ بأن زميلاً آخر يشاركه المرتبة لأنه من الطائفة أو لأنّ

---

[٢٠] الكدس: العرمة؛ كل ما تجمع وتراكب وتراكم فوق بعضه فصيحة ما تزال متداولة بكثرة في عامية الرقة..

والده من ضباط أو عناصر الأمن لم يخبرها خيباته المتوالية عندما يرشح لمسابقات الرّيادة ثم يمحى اسمه بعد أن ينجح ويحل اسم جديد بدله.

زادت مرارة ذلك أكثر في الامتحانات العامة عندما كان يشاهد المراقبين يتحلقون حول بعض الطلبة في قاعات الامتحان لمساعدة بعض زملائه الذين يعرفهم بسيماهم ولهجتهم لينالوا علامات عالية. بعض المدرسين من الطائفة الأخرى والكثيرين من طائفته يحاولون التقرب والتودد لأهالي التلاميذ أما معلمو الطائفة الأخرى فيعمدون لتشديد الرقابة عليه وعلى البقية ويعاملونهم كأعداء ليس لهم الحق في نيل العلم والشهادة كانت تلك الممارسات تحرق قلبه تخترقه كنصال حراب تمزقه.

كان يظن أنّ ذلك سيزول بعد الثانوية العامة، وعندما دخل الجامعة وجدهم أمامه وقد نالوا أفضل الغرف في المدينة الجامعية وحصلوا على أفضل مجموعات العملي في المختبرات وحظوا بعلامات ومعدلات عالية، بعضهم حظي ببعثات وعين يعضهم بأفضل المستشفيات، أما هو فقد ظلّ على رغم تفوقه يكدح لينال فرصة الاختصاص. ولم يكن الحال أحسن عندما التحق بخدمة العلم حيث عين هؤلاء في الأماكن التي يريدون وحصلوا على امتيازات وخدمات مثلى في حين زجّ به في قطعة عسكرية في البريّة.

والذي لا يستطيع إخبارها به هو ما حدث لوالده على أيديهم الاعتقالات المتكررة لأنّه لم يشارك زملاءه في الاختلاس والسرقة ولم يوقع على الكشوف الوهمية المزورة وانتهى به الأمر ليحال إلى الجهاز المركزي بتهمة الاختلاس وإساءة الأمانة في مؤسسة تعتبر مدرسة عالية لصناعة اللصوص والمرتشين والفاسدين الذين يكرمون ويرقون وينالون أحسن الامتيازات.

غبّ نفساً عميقاً من سيجارته التي استمرّ طعمها في فمه فأطفأها مباشرة وراح يراقب الدخان الفضي المتصاعد الذي تشوبه زرقة طفيفة وهو يتذكر الأيام الأخيرة شديدة المرارة التي عاشها والده قبل أن يفارق

الحياة حزنا وكمداً. كان يظن أنّ تلك الجراح التأمت واندملت لكنها لم تتئز بعد كما يبدو فقال مخاطباً نفسه بصوت خفيض:

- **أحسنت صنعا بعدم التطرق لذلك كانت ستظن أنك موتور منهم لأسباب شخصية، أنت لا تنكر أنّ لديك جملة معطيات شخصية تجعلك ناقماً عليهم لكنك تحمل همّ بلد كبير تحمل ضيمًا عاناه الملايين، من ظلم وتمييز واستلاب وتغريب وإفساد وقسوة، يالقسوتهم التي انغرست نصالا في القلوب وتركت جروحا وبذوحً[21]ا ودمامل موجعة لا تتئز[22] بيسر ولا تندمل رغم مرّ السنين.**

عندما انتصف الليل وهو على تلك الحالة نهض نحو الشرفة يراقب الشارع الخاوي إلا من بعض الشبان الذين غادروا بيوت أهاليهم منسلين ليدخنوا، وبعض السيارات القليلة التي تمرّ من قبالة منزله المطل على تقاطع عدة طرق أراحه الهدوء المفاجئ الذي لا يجده إلا قليلا رفع وجهه نظر إلى النجوم كانت الليلة مقمرة والبيوت متناثرة على التلعة الصغيرة التي تواجه بيته والأضواء الخافتة تتراقص وهو يصر عينيه اللتين تقاطرت منهما دموع متلاحقة.



كان الجوّ مشحوناً إلى درجة الانفجار. الوجوه كاظمة غيظها، محتقنة، يكاد الدّم يتفزّر من وجهي عائشة وجاسم الذين انزويا في زاوية قصيّة في غرفة المعلمين. كانوا جلوساً يشاهدون قناة الدّنيا التي تكذّب الأخبار وتنسبها للجماعات المسلحة ولا مجال للمس جهاز

---

[21] البذح: الشق والجرح.
[22] اتأز: التأم؛ اندمل.

التّحكم لتغيير القناة إلى قناة أخرى بوجود فاديه، أو بغيابها، فالخبر تتناقله الجدران التي صار لها آذان، تسمع، وترصد وتنقل. نهض جاسم تناول الجهاز، واستقر على قناة الجزيرة التي كانت تعرض مشاهد متلاحقة التقطت بأجهزة هواتف محمولة، ترصد أشلاء رضع قتلوا ذبحاً بالسكاكين، مجازر طالت الأطفال، صور أشلاء في الشوارع، أطفال مصابين، نساء مذبوحات، وأُخر منتهكات الأعراض، تعذيب معتقلين في المدارس والشوارع والسيارات، مدن وبلدات سويت بالأرض، وجنود وشبيحة يفاخرون بما فعلوا معاهدين على إكمال المشوار بكل ثباتٍ. صمت جنائزي يلف الغرفة، لا يجرحه غير صوت الجنود(**بدكن حرية!!؟**) ورقصهم فوق الأجساد الحية والممزقة وصوت فادية يتعالى بين فينة وفينة:

- **الله ينصركن.**

حنق جاسم وعائشة من صمت حسين وتهربه من إجابات واضحة، واندفاع المستخدم أبي جواد للدفاع، والتسويغ كان أكثر من غضبهما من علاء وفادية اللذين كذّبا المشاهد وادّعيا أنّها في بلدان عربية أخرى. مؤكدين حالة التعايش السّلمي الذي عرفته البلاد طيلة العقود السابقة، وأنّ أجهزة الأمن لا يمكن أن تتعامل مع المواطن بهذه الطريقة الوحشية، واستطردا للحديث عن وضع المنطقة المتخلف وكيف تم تطويرها بفضل الخبرات التي قدمت من مناطق أخرى استوطنت هنا ونمّت البلد وطوّرته، خطر لعائشة أن تواجههما بأنّ تلك الخبرات جاءت لتمتص دم النّاس لتستلب البلد وخيراته حيث حصدوا الوظائف، والبيوت، والأراضي ثمّ زرعوا أجهزة الأمن في كل مكان، همّت تخبرهما بأنّ تشكيل الأفرع بحدّ ذاته يعدّ في صُلب الطائفية لأنّ المنتظمين

بسلكها من أقاربهما ولاسيما المترئسين لها، رأت أنّ الكلام سابق لأوانه، صرخت فاديه وهي تحدج عائشة وجاسم بنظرة ذات مغزى.

- **الله ينصرهن.**

لم تتمالك عائشة نفسها، انبرت صارخة في وجهها، بأنّ هذا المشهد عندنا، ولا مجال لإنكار ذلك، وإن كانت الوجوه غريبة فهي بلا شك وجوه من الجوار قدمت لتشارك بما تسميه جهاداً، لقمع المتظاهرين فصاح علاء بحدّة:

- **هادا الكلام فيه تحريض طائفي.**

انتفض أبو جواد واعلنبى[٢٣] كهرّ يستعرض عضلاته ليداري خوفه وقال:

- **علي الحرام والذّمام لو إني أسطي بيهم، لأفرط عليهم وأدعيهم[٢٤] ثريد.**

عندما نهره جاسم عن الخوض في الحوار انتفض أكثر، وراح يرعد، ويزبد، بيد أنّه حين تدخل علاء مؤكدا كلام جاسم ارتخى راسماً ابتسامة فاترة يداري خجله وخوفه قائلاً:

- **تكرم أستاذ علاء، أنت على راسي من فوگ.**

وجدت فادية في ذلك فرصة للخوض في النقاش، لتثير غضب عائشة التي تجاهلتها مدركة ما ترمي إليه من وراء حديثها، قاصدة استفزازها لتدفعها نحو الوقوع بمصيدة الغضب، لتتصيد كلمات تستخدمها ضدها، لكن عائشة لم تتمالك نفسها فالتفتت إليها بوجه حانق ونهرتها عن الكلام والتدخل بين المعلمين شأنها شأن أبي جواد فثار علاء في وجهها صارخاً:

---

[٢٣] اعلنبى: برْأل، احرنفش، نفش ريشه وجسمه كما يفعل القط والديك عند العراك.

[٢٤] أدعيهم: أجعلهم؛ عامية رقية، تركيب مزجي من قولهم لا أدعهم إلا وقد....

- **السيدة فاديه موجّبة، ومقدرة غصباً عن الكل.**
- **ليش علگت[٢٥] عباتك[٢٦] على السيدة المقدرة فادية!!؟ وما دافعت عن أبو جواد.؟! لأ بالعكس أنت اللي لجمته!!.**
- **قصدك أنا طائفي.؟!.**

حاول جاسم إقحام حسين في النقاش للاستفادة من آرائه وثقافته الأدبية، بيد أنّه اعتذر عن الخوض في النقاش، واكتفى بمراقبة الأستاذ عبد الحميد الذي كان يغطّ في نوم عميق كالعادة، وهو يشخر شخرات متقطعة بين فينة وأخرى، وعندما ألحت عليه عائشة بإبداء الرأي، انتفض يداري خوفه قائلاً:

- **أني عايف هالقعدة[٢٧] للآنسة عائشة!! تركت أبو جواد واندارت[٢٨] علي!! (الما يقدر للجمل يرجع ع الحداجة)[٢٩] آني رايح على الباحة.**
- **مو بدكن حرية.؟!**
- **أنت تحچي درر يا أستاذ علاء، تحل علي أمي وأختي[٣٠]، لو ان الموضوع بيدي، لأسوي بيهم البطيط[٣١].**

انفلتت الضحكة رغماً عن عائشة التي حاولت تغطية ثغرها بكفها، لكن أبا جواد انتبه، فوضع ذلك في نفسه، نهض، وقد وضع يده على عقاله مهدداً متوعداً، فلم تتمالك نفسها من الرّد:

---

[٢٥] علگت: احترقت.
[٢٦] أخذتك الحمية.
[٢٧] عايف: تارك، أعيف: أترك، القعدة: الجلسة
[٢٨] اندارت: التفتت إلي وتعاورتني.
[٢٩] مثل رقي؛ الما: تركيب مزجي من أل التعريف التي تأتي هنا اسم موصول وما النافية؛ الحداجة: مركب النساء على الراحلة. فصيحة
[٣٠] قسم ويمين جاهلي بمعنى تصبح أمي وأختي زوجة لي إن لم أفعل كذا.
[٣١] البطيط: العجب؛ فصيحة ما تزال متداولة بكثرة في محكي الرقة.

- **حاج تهذرب[٣٢]. أي عليم ربي لونك تكرف[٣٣] ريحة البارود ألا تدوخ.**

أحسّ أبو جواد بنفسه عارياً أمام الجميع وأدرك في تلك اللحظة أنهم يعرفون حقيقة جبنه التي يحاول إخفاءها ليبقي نفسه في حالة رضا عن الذات، حاول الحديث، لم يجد ما يقول، وعندما تناهى إلى مسامعه رنين الجرس، وقف منتصباً بمبالغة شديدة ليعطي الأمر للمعلمين لترديد الشعار الذي يجد فيه فرصة سانحة لفرض سطوته عليهم، لأنّ أحداً منهم لا يستطيع الاعتذار أو التردّد وإن كان الواعز مستخدماً مما يغذي فيه أحاسيس يستلطفها ويستمريها لكنّه حين هم بإعطاء الإيعاز، سبقته فادية بعجالة:

- **يالله، يا أساتذة دق الجرس قوموا لترديد الشّعار.**
- **ماشي ست فاديه، يلا شباب على ترديد الشعار، الشعار مقدس، شرّفْ أستاذ علاء بعد إذن شواربك.**
- **افيني[٣٤]، تعبان شوي روحوا انتو .**

ابتسم أبو جواد ابتسامة واهية في وجه علاء، التفت إلى جاسم وقد تشنجت عضلات وجهه، وتجهم ليحضه على ترديد الشّعار بلهجة قاسية، خالية من الرجاء، احتقن وجه جاسم، أصابته نوبة غضب، عدّل جلسته فسقط عقبة السيجارة من يده وقال وهو يكزّ على أسنانه:

- **أبو جواد خليك بحالك، ماني ناگصك، ما أروح ألا يروح علاء.**

انتفخت أوداج أبي جواد غضباً لهذا الجواب الذي جاءه بغتة، شعر بأنّه المعني به وراودته فكرة أنّ ذلك إذا تكرر فسوف يشجع آخرين

---

[٣٢] حاج: بمعنى كفى الهذربة كثرة الكلام في سرعة؛ فصيحة ما تزال متداولة بكثرة في محكي الرقة.
[٣٣] يكرف: يشم ؛ فصيحة ما تزال متداولة بكثرة في محكي الرقة.
[٣٤] أي لا أستطيع.

ليحذوا حذوه فدهمه خوف من تقوّض إمبراطوريته العظيمة، فجأة همّ يردّ ويهدد، لكنّه تمالك نفسه عندما دخل المدير الذي شاهد التلفاز على قناة الجزيرة، فاستيقظت بصدره كل مشاعر الخوف والرهبة:

- **ألف مرة، قلنا يا جماعة، هاي القنوات ممنوعة، اللي بدو يتفرج، بي قنوات سورية، بعدين إذا صار شي، انتم تملصون، وتقع براسي، الله يلعن اليوم اللي تسلمت بيه الإدارة القشرا[٣٥].**

زاد جاسم الطين بِلة، عندما شنّ حملة شعواء على القنوات المحلية، واصماً إياها بالمبالغة، والكذب، والتلفيق الأحمق، غير المدروس وأنها تمارس تحريضاً طائفياً محضاً يسيء للبلد إساءة كبيرة وتستفز مشاعر الناس، حاول تهدئة المدير واعدا إياه بتحمل المسؤولية كاملة عن الموضوع في حال وصل الخبر إلى الجهات العليا، لكن ذلك لم يسهم في تهدئته بل زادت حدة غضبه أكثر فقال وهو يقبض بقوة على بطنه متوجعاً:

- **أستاذ جاسم!! داخل على عرضك، دشر[٣٦] هالسوالف[٣٧] ما يجي من وراها غير البلى، احنا جماعة الياخذ أمنا، يصير عمنا، وين يريدونا نتفرج، نتفرج!!.**
- **بس هاي براغماتية أستاذ علي.**
- **أي نعم براغ... اش قلت أستاذ جاسم.؟!.؟!**
- **براغماتية يا أستاذ علي انت زلمة بعثي، ومتعلم وما تعرفها!!**
- **يعني هاي بالمنطلقات النظرية للحزب؟!.**
- **ما أعرف !! بس كل البعثيين اليوم يطبقونها.**
- **الحقيقة الرفاق البعثيين كانم مشاعل نور بنهضتنا.**
- **علمك ببالس عمار[٣٨] !!**

---

[٣٥] أقشر وقشراء شديدة السوء؛ فصيحة ما تزال متداولة بكثرة في محكـــي الرقة.
[٣٦] دشر: عامية بمعنى اترك واهجر ودع.
[٣٧] السوالف: عامية بمعنى الحكي.

افتر ثغر عائشة عن ابتسامة خبث، وقالت وهي تنظر لأبي جواد الذي بدأ يهندم نفسه، يعدّل بريمه[39] دافعاً الشماخ إلى الإمام ليبرز كرأس صقر فوق رأسه:

- **أستاذ علي!! أبو جواد زاد براغماتي.**

صافح المدير أبا جواد الذي اقترب مفاخرا مزهواً، ثم التفت إلى المعلمين واعزًا بضرورة القيام لحضور تحية العلم، فرد علاء ببرود معتذرا متعللا بالتعب، فاجأته نبرة علاء الذي تحدث بلامبالاة، وجم للحظة وهو يحدق فيه وعندما التقت عيناهما، صعر خدّه مباشرة، التفت إلى جاسم وطلب منه القيام لترديد الشعار بحزم وثقة، فباغته جاسم برد فاتر وهو يحرك حبات سبحته بهدوء ورتابة:

- **زاد أني حيلي مهدود، خليها لغير يوم.**

شعر المدير بحرج شديد أمام طاقم المعلمين الذي استغربوا موقف جاسم المفاجئ، وقد اعترى بعضهم خوف، وقلق على جاسم الذي قد ألقى بنفسه في التهلكة، لأنه ليس في وضع كوضع علاء، فقد يجلب الخبر ويلات على رؤوس الباقين، ولن يشفع له التعب والمرض، فالعقاب سيطاله، ولو كان على فراش الموت، احتد المدير غضباً وتنافخ كديك ينفش ريشه، وقال وهو يرصّ خِزلة من بطنه:

- **يا سيدي بدك تقوم إذا چنت تنازع يالله جدامي.**[40]

تجاهل جاسم ثورته العارمة، أردف ساقاً على أختها، ودفع جسده للخلف وهو يغمض عينيه، معتبراً ذلك ردّ فعل طبيعي من المدير الذي

---

[38] بالس مملكة قديمة أقيمت في منطقة مسكنة شرق حلب وقد بادت واختفت. يضرب المثل لمن يظن الخير فيمن لا خير فيه.

[39] البريم: العقال الذي يوضع على الرأس.

[40] جدِامي: تصحيف لـ قدامي؛ أمامي والقاف في محكي الرقة قد تقلب جيماً وقد تقلب غيناً وقد تلفظ صحيحة وكل ذلك سماعي لا تضبطه قواعد لهجية.

يحاول الدفاع عن نفسه أمام الآخرين، ساد صمت ثقيل للحظة ثم تبدد عندما انتفضت فاديه واقفة وصاحت وهي تنظر إلى جاسم مشيرة بسبابتها:

- **ابيصير يا أستاذ هالحكي المعت[41].**

عدل جلسته بهدوء وقال بحزم:

- **المعته سوالفچ، روحي من وجهي سوي شاي، أو شيلي المساحة اشطفي المدرسة.**

نهض علاء محتدماً رفع يده وقد أفرد سبابته في وجه جاسم وصاح به:

- **ليك[42]، احترم نفسك ابسمحلك تحكي مع فاديه بهالطريقة!!.**
- **معتّه وستين معتّه وعليّ الجيرة[43] ما دامك ما تحضر تريد الشعار فلا أحضره.**

شعر المدير بغضب مصحوب بتوعك شديد في البطن، قبض على بطنه بيده، وهو يرعد، ويزبد مهدداً باتخاذ الإجراءات القانونية في نهاية الدوام موجهاً الكلام للجميع مشدداً على جاسم بالذات، مما أثار حفيظة جاسم وجعله يثور أكثر وهو يراه يخاطب علاء بلغة لطيفة متودداً، متوسلاً لحضور الاجتماع.



على رصيف الحديقة المطلة علي البحيرة، وقف محمد نافد الصبر، لم يكد يصدق عينيه عندما رآها قادمة مختالة بمشيتها المميزة، وهي تحرك كتفيها للأعلى فيهتز فرعها[44] كأنّها تمتطي فرساً، وجهها العريض

---

[41] ابيصير: ينفى الفعل بحرفي الألف والباء في لهجة الطائفة؛ ابيصير؛ لا يصير. المعت: الفارغ أو المتهرئ. المعت في الفصحى الدّلك.

[42] ليك: انظر، أو تنبه ، أو انتبه إلي، مستخدمة في الساحل .

[43] قسم ويمين.

[44] الفرع: مجموع شعر رأس المرأة.

الممتلئ جمالاً وصحة لا يناسب كثيراً قامتها النّحيلة، لكنها على الرّغم من ذلك بدت جميلة، ساحرة الطلة.

لم يكن ينوي الحديث عن الهمّ اليومي في البداية، فلم تكد تستقر حتى انبرى يسرد لها الأحداث التي تعصف بالبلد. حدّثها عمّا يجري في حمص، وحماه وما ارتكب فيها من مجازر بحق الإنسانية، جرائم يندى لها الجبين، اغتصاب، وحرق، وتقطيع أوصال وتشريد، واستيلاء على الممتلكات، والبيوت، وتخريبها بعد نهبها ترقرقت عيناه بالدموع، وهو يصف لها ما شاهد على الفضائيات والفيسبوك من صور ومقاطع لأطفال قطعت أوصالهم على يد الشبيحة، والجيش وعتاة المجرمين، تحت ذرائع القضاء على العصابات المسلحة، نشج بحرقة، تعالى نهيته، لم يستطع أن يقاوم، سالت الدّمعات سخينة، كوت روحه قبل خديه، أخبرها أنّ الحاجة للبكاء راحة للإنسان في أوقات الكآبة، والحزن، ولكنّها في وقت عصيب كهذا عذاب يضاف إلى عذاب، لأنّها تعبير عن العجز، لم يكن يريد جلد ذاته، بيد أنّه أخرج مكنونات قلبه أمامها، استجابت دموعها لدموعه سكتا لبرهة ثمّ عاد لحديثه ثانية وهو يحشرج قليلاً:

- **يعاودني بيت لشاعر لا أحبه : (جعلتني الدمعات كمنديل العرس طرياً لا أجرح أبداً) أخوتي تسيل دماؤهم، وماذا أقدم لهم غير دمعي لا شيء أليست هذه خيانة بحق الأخوة يا توق.**

أردفت صمتاً على صمتها، مشّت بطرف منديلها ما ترقرق من عينيها، أشاحت نظرها هاربة، صرّت عينيها تمعن بنوارس الأفق البعيد لبرهة قبل أن تقول:

- **دعنا من هذا الموضوع، أنت تقلب دماغي، أخشى أن أخرج إلى الشارع صارخة، مطالبة بالحرية بعد جلسة أو جلستين معك أنت**

تصيب مجالسيك بالعدوى،الم تلاحظ أننا منذ تعارفنا، ونحن نتحدث بلغة أقرب للفصحى منها للعامية..؟!

- **نحن العرب نعاني حالة انفصام، نفكر بالفصحى، ونعمل بالعامية مع محيطنا. .**

أشار للنّادل وطلب فنجاني قهوة.

- **أنت مأزوم بشكل واضح أهي مشاكل الزوجية.؟!**
- **ليس.**

حدثها عن خلافاته الزوجية، التي رفعتها الثورة إلى الذروة لأنّ زوجته من الطائفة الأخرى والتي باتت تعتبره عدوّاً لها في البيت وتحاول إبعاد ابنه عنه لتشفي غليلها انتقاماً منه ومن أبيها الذي سانده ودعم موقفه من الثورة وسرعان ما شعر بالندم لتطرقه لهذا الحديث الذي اعتبره سابقاً لأوانه، أخرج علبة سجائره، سجر لفافة، نفث الدّخان دوائر متلاحقة، تتصاعد، تعلو كعمائم شيطان رجيم.

أشاح بوجهه نحو البعيد حيث الازرقاق السّماوي يعانق. ازرقاق البحيرة التي تجلت فيها جميع درجات الأزرق في مناطق مختلفة على صدرها المتموج كأنّه صدر درع. استغلت فرصة تأمّله وشروده، أمسكت منديلها، مسحت دمعات سالت على خدّيها، كانت جاهدة تقاومها كيلا يراها. شعرت بفرح غامر، وحزن عميق يتعانقان في أعماقها، لم تفهم سرّ هذه السّعادة التي انتابتها وهو يفضي لها بما كتم في سريرته، أخرجت هاتفها المحمول، نظرت إلى السّاعة واكتشفت أنّ الوقت قد مرّ سريعاً، ولم تشعر به، لم تشأ أن تقطع شروده، أعادت الجهاز إلى حقيبة يدها، وراحت تتأمل شيب ذؤابته الذي تصورته فضة ذائبة ترصع سواد شعره الفاحم. لكنّها شعرت فجأة بوطأة الصّمت الثقيل يطبق على قلبها، حاولت أن تقاوم رغبتها في عودته للحديث لم تستطع، كانت في شوق لحديث منتظر،

حديث جاءت تريد سماعه، أدركت في تلك اللحظة، أنّ ثمّة ما يعتمل في صدرها على رغم محاولتها الحثيثة أن تقنع نفسها بأنّ دافعها الفضول، إلا إنّها لم تقتنع بهذا المسوّغ الذي ساقته لنفسها.

التفت إليها بوجه كاب حزين، بدا لها في تلك اللحظة أكبر بكثير مما هو عليه، كأنّ السنون سرقت من عمره عشر سنين في هذا الشرود القصير، للمرّة الأولى تنبهت لجمال عينيه العميقتين، ارتسمت على وجهه ابتسامة ممزوجة بأسى وحزن عميق وسألته:

- **بالمناسبة كم عمرك.؟!**
- **هرمنا.**

قال ذلك وهو يمسح رأسه مقلداً أحمد الحفناوي.لم تعلق، ران الصّمت ثانية يلفّ المكان، همّت تستجرّه نحو اعترافات تنتظرها، فكرت للحظة، أعادت تقليب الأفكار التي تجول برأسها خافت أن تكشف أوراقها أمامه، أن تفضح ما يجول في سريرتها، صعقها تصوّر أن يثور بوجهها صارخاً: أنت مجرد طفلة ليس في قلبي ما تتوهمين، أرعبها هذا الهاجس المتخيّل واجهت نفسها بأسئلة كثيرة حوله، حول مشاعرها واندفاعها نحوه، ما الذي يريد منها.؟! وماذا تنتظر منه.؟! لم تصل إلى إجابة شافية، فانطوت على نفسها صامتة، تحدّق في دوائر الدّخان المتصاعدة وهي تتلاشى في الفضاء الرّحب.



حركت فيروز قصتها يمنة ثم يسرة وهي تنظر إلى وجهها في المرآة تعلو وجهها ابتسامة لا تخلو من كثير خبث وقالت لنفسها:

- **اجـا لعنـدك جاسـم برجليـه، هـادا اليـوم الموعـود، اليـوم يومـك يا بنت.**

استدارت أمام المرآة ناظرة إلى عجيزتها، ضربت عليها بيدها وقالت وهي تقبض على أليتها اليمنى:

- **لو معك شهادة جامعية كان عملتك هالخلفية وزيرة.**

رقصت أليتيها يمنة ويسرة، استدارت رجرجت طرطبيها[٤٥] بيديها، عادت نحو المكتب وقد تعالى صدرها شامخاً، تأبّطت محاضرها الرسمية هبطت الدّرج بخيلاء كأنّها في استعراض عسكري، دفعت باب الإدارة، رأت الغرفة عاجّة بدخان سجائر كثيف لبثت برهة تراقب الدّخان مبتعداً إلى الممرّ، أقفلت الباب اتخذت مقعدها بجانب مكتب المدير الذي أطفأ سيجارته بنزق واضح، كاتماً حنقه، وغيظه،لاعناً السّاعة التي جعلته يعرّج إلى غرفة المعلمين هذا الصباح كافراً باليوم الذي ألقى إليه بجاسم وعلاء اللذين جلبا له الويلات منذ قدومهما من الرّيف الغربي.

قلّبت أوراق محضرها وهي تراقب جسد جاسم النحيل عينيه الغائرتين، شاربه الرفيع ، تقاطيع وجهه وقد انشغل بدخان سيجارته، راضعاً عقبها بنشوة دون أن يعير الموجودين أي انتباه، كان يسبح في عوالم أخرى، سعيداً مرتاحاً كأنّه بما قال هذا الصباح، زحزح عن كاهله أحمال جبال. سلّ سيجارة أخرى لم يكن راغباً فيها، لكنّه أراد أن يستفزّهما أكثر، تململ المدير في مقعده متجاهلاً حركته، أردف ساقاً على ساق، متأهباً لما سيدور بعد أن رنا إلى فيروز بنظرة عابرة، وهي تعدّ محضر الجلسة أخذ نفساً عميقاً، تحوّل من مقعده مقترباً من مكتب المدير على مقربة من فيروز.

رمقته بنظرة مبرهمة قبل أن تبدأ حديثها أمطرته بوابل أسئلة متلاحقة دون أن تترك له الفرصة للردّ، تمالك أعصابه كانت إجاباته مقتضبة وهادئة مفسراً ومعللاً ما فعل، دون استطراد، حاورها برزانة، مسفّها

---

[٤٥] الطرطب: النهد الضخم المسترخي.

معظم أقوالها، هذربت كثيراً عن المؤامرة العالمية التي تحاك من الدول الكبرى، والصغرى حول البلد، عرّجت على المتظاهرين بأقبح الأوصاف، ضغطت على أعصابه أكثر فأكثر، أدرك اللعبة. كانت تراوغ وتناور، لتثير هيجانه أكثر، ليزلّ لسانه بكلمة ما، لكنّه كشف مراميها، ناورها بكلام رمادي، تارة وبكلام صريح تارة أخرى كان هو نفسه بين شدٍّ جذب يحاول البوح بما في قلبه ثم يتذكر مصير أولاده وما سيكون حالهم في حال ساءت الأمور، باءت كلّ محاولاتها بالخسران، لم تستسلم واظبت على ما نوت، شنّت عليه حملة أسئلة جديدة آملة أن يلين موقفه، أو يتراجع، لم يجدِ ذلك نفعاً عندما أنهت سيل أسئلتها أقفلت المحضر واعدة إياه أن يطوى الموضوع في مكانه إذا أبدى ليونة وتراجع عن موقفه أيقن أنّ ما يحدث مجرد زوبعة في فنجان، ليس بفضل الظروف فحسب، بل لأنّ علاء طرف في الموضوع قرّر جاسم أن يواجه مصيره في تلك اللحظة (خلها تمطر وَحَل) قال ذلك في قرارة نفسه، وقد تزاحمت في مخيلته صور أشلاء الأطفال الذين قضوا تحت قصف المدافع، والطيران، صور القرى التي لم يبق فيها ديّاراً. تذكر حالة الحنق، والغليان التي تجتاحه، وهو يجلس حبيس البيت، يواجه شاشات القنوات الفضائية، تعالى صوت جاسم أكثر وأكثر واخضرت حنجرته ربيعاً من الكلام المنمّق، رفع وتيرة هجومه، باح بما كان يخشى، أفرغ ما في جوفه من وجع، ظلّ مكبوتاً في أبعد طيات النّفس، أخرجه للعلن، وصل الطعن، والتشكيك إلى رأس النّظام المؤله شكّك بأفعاله وأقواله حمّله وِزر كلّ ما يحدث في البلاد والعباد، استمر في كيل الشتائم دون أن يأبه لعلاء الذي ولج دون أن يطرق الباب، قال كلّ ما أراد أن يقول منذ سنين، وقف متأهبا كطود شامخ، تناول المحضر من يد فيروز ذيل المحضر بتوقيعه تاركاً فراغاً كبيراً وقال بصوت خفيض:

- **توقيع على بياض وعبي الفراغ على كيفچ.**

أغلق الباب خلفه بهدوء جم، تاركاً المدير، وأمينة الوحدة في خضم موج متلاطم من الحيرة، والقلق والاستغراب لهذا التحول، تجمّد المدير لهول الفجاءة شعر بتوعك، ضاق صدره كاد يحشرج، وهو يتحدث اكتفى بكلمات قليلة، تهدئ من روع الآخرين، واعداً إياهم أن يتدارك الموضوع بعد نهاية الدّوام الرسمي عبر زيارة بيتية لجاسم.

بجمت[٤٦] فيروز، تملكها غضب، وحنق شديدين، أحست بالدّم يغلي في عروقها، سحبت علبة السجائر من أمام المدير، أشعلت لفافة تبغ بنزق، وهي تراقب رجفان أصابعها.

حلّ المدير ربطة عنقه الكحلية ثمّ نزعها جانباً، دعك صدره بحركات بطيئة، كانت حالته تزداد سوءاً، بيد أنّه تمالك نفسه، واعتبر الأزمة مجرّد وعكة عابرة يصاب بها كلما تهيج مصرانه الغليظ.

أطفأت فيروز السيجارة بنزق أيضا، قلبت أوراق المحضر، واجهت علاء بكلام ناعم النبرة وبصوت خافت:

- **أستاذ علاء هاي المرة العاشرة ويمكن العشرين اللي ما بتطلع لترديد الشّعار بدي[٤٧] منك تفسير منطقي وبهدوء، لو سمحت، أنت تعرف أنو الشعار مقدس.**

نهض علاء من مقعده شابك يديه خلف ظهره، والسيجارة تتدلى من شفته العليا، ذرع الغرفة جيئة وذهاباً، مطأطأ الرّأس وهما يرقبانه بوجل وصمت، أسند خلفيته إلى طرف مكتب المدير أخذ السّيجارة بين أصبعيه، صرخ بنبرة حادة:

- **ولك أنتو[٤٨] أبتفهمو، لك نحنا حطينا الشّعار لحتى تردّدوه أنتو، مو نحنا، لعمى، لك صحيح اللي استحوا ماتوا.**

---

[٤٦] بجم سكت عن هيبة أو عي.
[٤٧] بدي: أريد في لهجات المناطق الأخرى.
[٤٨] انتو: أنتم: تستبدل الميم واوا في هذا الضمير في لهجات المناطق الأخرى عموماً.

ألقى عقب سيجارته على زجاج المكتب بعصبية، حدج المدير بنظرة قاسية، دنا من أمينة الوحدة همس بهدوء:

– **قومي اطلبي الإسعاف قبل ما يفطس، مديركن[٤٩] عم ينازع.**

دسّ علبة طباشير في جيبه تناول عصا غليظة أمسكها بكلتا يديه خلف ظهره، ومضى يدفع بطنه الكبير أمامه.

❁ ❁ ❁

تأملت مي جسد أمها الهزيل، وجهها الممصوص، بشرتها المتغضنة التي حفرت فيها السنون أخاديد كثيرة، وعميقة، أقعدها المرض فلم يبق منها ما يتحرك، سوى عينين تجوسان الغرفة بضيق، وأسى على موت يغدو عندها راحة مشتهاة، بعد عقدين من العياء، والهرم. أغلقت مي الباب بهدوء، صنعت لنفسها فنجان قهوة، جلست أمام لوحتها الأخيرة ترنو إليها بعينين ذابلتين، تراءت لها الألوان على غير ما ترى، لم تجد فيها دلالاتها التي كانت تسكنها، دهست بعض الألوان بالفرشاة مزجتها بنزق، رفعت الفرشاة لترسم، تجمدت يدها، سالت نقاط اللون على مريولها، ودموعها على خديها، سقطت الفرشاة من بين أصابعها المرتجفة التي ظلت معلقة في الهواء، قامت باتجاه الطاولة الصغيرة، أخذت الهاتف، خابرت محمد، طرحت عليه بعض الأسئلة حول وضع أمها ودوائها فأجابها باقتضاب، معتذراً بسبب انشغاله خارج العيادة يعالج حالة طارئة، أعادت السماعة وهي تعض بثناياها على شفتها السفلى بندم لأنها استشعرت أنها باتت تثقل عليه في الآونة الأخيرة، وأنّه بات يتهرب منها بذرائع لم تقنعها.

---

[٤٩] مديركن: مديركم يقلبون الميم نونا في لهجات المناطق الأخرى.

عادت إلى لوحتها تمشي بجسد مثقل بهموم جسام، رأت الأشياء والألوان مكسوّة بضباب وسديم يغلفها، يفقدها نصوعها وهويتها الحقيقة، فركت عينيها، أمسكت الفرشاة بأصابع واهنة، دهست الألوان مشكلة تمازجاً لونياً على اللوحة، أعادت توزيعها على المساحة البيضاء تداخل الضوء والظل، أضافت ألوان جديدة، خلقت تمازجا لونيا جديداً، ودون أن تشعر بدأ وجه طفل يتشكل شيئاً فشيئاً، انتبهت لذلك توقفت عن الرّسم اغرورقت عيناها بالدموع، عاودها حلمها الكبير بأن تكون أمّاً ذات يوم، لكنّ الحلم تلاشى كان من الصعب عليها أن تنجب لأنّها حامل لمرض في الدم قد يجلب ويلات على نسلها كما أنّها لم تستطع أن تترك أمها المقعدة، وتتزوج بعد أن تخلى عنها أخواها اللذين استقرا في دمشق بعد زواجهما، وانقطعت زيارتهما منذ أمد بعيد.

أجفلها رنين جرس الباب على حين غرّة، لم تستطع أن تحدّس هوية الطارق، لكنها توقعت حضور توق في هذه الساعة، وعندما فتحت الباب فوجئت بمحمد يقف حاملاً حقيبته الطبية، راسماً ابتسامة عريضة وعندما التقت عيناهما مط شفتيه إلى أسفل وهو يرفع كتفيه ليعتذر لها عن ردّه المقتضب على الهاتف.

استقرا في صالون الضيوف بعد أن ألقى نظرة فاحصة على العجوز، استعرض اللوحات المعلقة على الجدران ممعناً النظر باللوحات التي بدأت بإعدادها للمعرض الجديد، وحين استدار ليرتشف القهوة هاله الحزن العميق الذي يكلل وجهها، ويفقد عينيها بريقهما الجميل، كان يعرف سرّ ذلك الحزن الذي سببه لها مرض عضال منعها من الاقتران بجاسم بعد قصة حبّ جارفة دامت ثلاثة سنوات نسفها تقرير طبي صغير، لم تتح الفرصة لرؤيته ولطالما كان الفضول يدفعه لمعرفة نوع

العلة التي حالت دون ارتباطهما لكنه كان يتردد في سؤالها خشية أن يوقظ أشباح الحزن والأسى في صدرها وإن كان يحدّس أنها لا تنام ليلة دون أن تزورها تلك الغيلان والحنافيش قرر أن يفاتحها بالموضوع أخيراً ولكنه أرجأ ذلك بعد أن قرر التطرق لأحاديث أخرى كيلا يشعرها بأنّه أقحم الموضوع لغاية مبيتة في نفسه.

- **بالمناسبة من يومين شفت الصحفية... الصحفية..؟!**

حكّ صدغه بأصبعه، وهو ينظر إلى السقف، فرمقته بنظرة حادّة وقالت:

- **يسلم لي البريء، على أساس نسيان أنا، أكثر وحدة بالدنيا كاشفتك، يا أبو جاسم، يالله المعاملة مع الله اسمها سامية.**
- **لأ، اسمها توق.**
- **ليس.**

ضحكت بفرح وهي تراقب ضحكته التي تلاشت شيئاً فشيئاً. أخذ يفرك يديه بارتباك ظاهر، تردّد في طرح الموضوع، أعاد صياغة مفرداته وسؤاله مرّات قبل أن يسأل وجد نفسه مدفوعاً بفضول لمعرفة تفاصيل ما حدث بينها وبين جاسم فلطالما كان يراوده سؤال عن سبب تخلي جاسم عنها وزواجه المفاجئ من امرأة أخرى بعد قصة حبّ جارفة. كان بعيداً عن مجرياتها عندما كان في حلب ينهي تخصصه الطبي بعد المرحلة الجامعية، تبعثرت كلّ الكلمات التي نمّقها، فطرح سؤاله بشكل فج ومباشر.

تملكتها الدهشة والحيرة لسؤاله المباغت، نظرت إليه نظرة حادة مأخوذة بالمفاجأة، لم تستطع فهم ما دفعه لذلك بغتة، لم تنطق، قامت ببطء شديد متجهة نحو غرفتها، استدار نحو اللوحة الجديدة، وقف يتأملها ملياً يقترب حيناً يمعن النظر، يبتعد يغيّر زاوية الرؤية، تجاهل

اللوحة اتجه نحو الحائط ينظر إلى صورتها التي رسمتها لنفسها، مجسدة حزنها العميق في نظرة عينيها الجميلتين بشرتها البيضاء الغريرة التي تبدّت في اللوحة بشرة واهية، قاتمة قليلاً عرف أنّها أخرجت حزنها الدفين، معاناتها، قهرها، توقها لأن تكون أمّاً والذي جسده توزع الظل والنور الذي يجعل الإطار العام للوحة وكأنها تدور في فضاء شكل يأخذ الوضعية الجنينية، بطريقة يصعب إدراكها دون معرفة عميقة بالفن ودون قراءة متأنية أيضاً.

عندما ناولته التقرير الطبي المتهرئ، عرف أنّها تخرجه كلّ ليلة تنظر إليه دون أن تفهم طلاسمه لكنها بالتأكيد، تبثه شكواه وحزنها وربما تلعنه حتى تطفئ بعض النار في أحشائها.

- **أنا بصراحة أكره جاسم أكثر مما أكره التقرير لأنه انسل هارباً من أول عثرة، أحيانا أكره نفسي وأمي وانت وجيداء وكلّ الناس....**

فتح التقرير أمعن النظر في قراءة المعطيات الموجودة فيه صعق، تجمد في مكانه، أعاد القراءة ثانية جحظت عيناه وقف من فوره صرخ بها محتداً:

- **البسي بسرعة بدنا نروح مشوار ضروري.**

✿✿✿

فتح عينيه بصعوبة بالغة، لم يبصر شيئاً حوله، الظّلام ساكن المكان وسيّده، يلفه بعباءة قاتمة تلاقى لفقيها بإحكام اختلجت أنفاسه، تصاعدت ضربات قلبه أحس بوجيبه يزداد كأنه يرتفع ليغدو في حلقه، باغتته المخاوف، والوسواس من كلّ الجهات، تناهبته الأفكار السوداوية، إخالني وصلت العالم الآخر، قال لنفسه، لم يفهم سرّ هذا الظلام المطبق، حاصرته الحسرة، والخوف والحيرة في وضعه في هذا العالم الذي آمن أنّه

للعتاة، والمجرمين وللنظام. انتفض من مكانه، عندما ضُرب البـاب بقـوة، استعاد بعض وعيه، تذكر جلسة التعذيب الأخيرة، واللحظـات العصـيبة التي مرّ بها قبل أن يسقط مغشياً عليه كثوب دريس دق بـين حجـرين كثيراً، تهللت أساريره، أيقن أنّـه لم يغـادر دنيـاه، اسـتأنس أكـثر بصـوت حسان يبعبع من خلف الباب كضبع:

– **عبد الرحمن ولاه، قوم يا ابن الكلب.**

وكالعادة استدار نحو الجدار مرتعد الفـرائص، شـابكاً يديـه خلفـه، مولياً ظهره للباب، وقـد كـبّ وجهـه إلى الأرض. دحـره في ظهـره بقـوة، طوّاه فرح غامر أحسّ بخلاص وشيك، تبـدت أولى معالمـه بإخراجـه مـن الزنزانة الانفرادية دون قيد أو عصابة، جعله يرى الممـرّ الـذي يجّـر بـه يومياً، منذ أن ألقـي بـه هنـا يقطعـه جيئـة وذهابـاً مـن وإلى التحقيـق وجلسة التعذيب. كان الممرّ طـويلاً ضـيقاً يـفضي إلى زنزانـات انفراديـة على جانبيه، جدرانه كابية، تنيره مصابيح كهربائيـة قليلـة خافتـة، تتـيح للسائر أن يرى أمامه مسافة لا تتجاوز قـدر ذراع، كـان الوقـت متـأخراً، كما بـدا لـه، وهـذا الشيء أكـدّ تفاؤلـه أكـثر فلـولا صـدور أمـر الإفـراج لانتظروا حتى الصّباح. أهلـت البشـائر، والسّـعادة دفعـة واحـدة عليـه، تذكر أمّه أخوته وأخواته، فاجتاحت نفسه نسـائم فـرح لم يعرفهـا، منـذ أن حلّ خلف جدران قبره الصّغير الذي يفصله عن العـالم، ويجتثـه مـن حياته، اجتثاثاً قاسياً، قاتلاً، كاد للحظـة أن يقفـز إلى حسـان، أن يطويـه بين ذراعيه طـويلاً، وأن يصرخ في وجهـه، لقـد عـدت للحيـاة، عـدت يـا حسان!! ولكني لن أنسى ما حدث هنا، ما حييت لكنـه تراجـع، أدرك أنّ ذلك التذلل سيجعله ضعيفاً أكثر مما هو عليـه، أراد أن يكمـي[٥٠] الحقـد والكره بقلبه، أن يراكم معاناته، قرّر أن يجعلها همّه اليومي كيلا ينسى.

---

[٥٠] يكمي: يغبي ويدفن.

استوقفه حسان بيد غليظة باردة هبطت على كتفه كإسطامة[٥١]، عند نهاية الممرّ الطّويل أمام باب كبير حدّس أنّه يفضي إلى باب رئيس، ليخلي سبيله اقترب منه كثيراً، زكمته رائحة البخر التي خرجت من جوف حسان كجيفة قبر، وهو يصرخ بصوت منكر ليخلع ثيابه، لم يصدق ما سمع لأوّل وهلة، انصاع للإيعاز عندما زمجر فيه ثانية وهو يتساءل هل جعلوا التّعري طقساً من طقوس الخروج كما الدخول،.؟! إمعانا بإذلالنا!؟. نزع ثيابه كدّسها بجانبه. مبقيا سرواله الدّاخلي يستر عورته فتلقى صفعة عاجلة لتوانيه، دسّ إبهاميه تحت التِكة دفعه إلى ركبتيه، فانزلق إلى قدميه، أخرج قدميه من فتحتيه، دفعه بقدمه فوق عرمة الثياب المنتنة، أشار إليه، فحمل الثياب تحت إبطه، وقف عارياً تقدّم حسان من الباب أدار المفتاح في قفل المزلاج، دفعه قبالة الباب، ركله على أُليته فانحشر مقوس الجسد داخل غرفة مظلمة، تجلت فيها هيئات كأشباح أناس تحلقوا حوله بمحاذاة الجدران دون حراك، أو صوت، انتفض لاصطفاق الباب خلفه أرجفه صوت حسان نابراً:

- **ع النّوم يا ولاد الشرموطات.**

لملم ثيابه، ارتداها كيفما اتفق على عجل، لم ينتبه إلى أنّه لبس بعضها مقلوباً، مرّت هنيهة، عادت الحياة تدبّ في شخوص الزنزانة الذين تحركوا منصاعين للأمر، اندس بعضهم تحت الأغطية القذرة، وتحلّق بعضهم الآخر حول قامة شبح بدا أكبر الموجودين والذي استطرد حديثه ثانية عندما انصرف العنصر:

- **ما حسيت ودريت بحالي، ألا وأني أصيح اتق الله يا رجل، كافيكم عاد سوالف ما لها طعمة، يعني الدنيا كلها صارت تعرف ان المؤامرة على الشعب، بعدين هاي حرب طائفية، وحاج تسب**

---

[٥١] الإسطام: القطعة الكبيرة من الحديد أو الخشب.

رجال الدّين اللي ناصرونا ودافعم عن قضيتنا وما خليت بقلبي شي إلا قلته، صليت الجمعة، شلت عصاتي ورحت للبيت، بس قبل ما أصل لقطوني، صار اللي صار جابوني مكبّل ومعصوب.

وعندما هدأت ضحكاتهم وقهقهتهم أردف:

– **المصيبة مو هين، المصيبة لمن فتت ع المحقق أول مرّة، خذاني العنصر من الزنزانة الانفرادية، معصوب ومكبّل، فتت ع المحقق، سألني الأسئلة اللي تعرفونها، بعدها سألني مهمتك بالتنظيم، قلت: قناص.سمعت صوت العنصر يكركر بضحكة محبوسة، المحقق استنفر، وصاح على العنصر فرد عليه سيدي هذا أعمى، على أساس منشان يبرر ضحكته، فانقلبت الآية عليه على قولة المثل: (حجبولها عن البول صبّحت خريانة)[٥٢] فنزل بيه سب من الصُّرّة وتحت. بس للحز يأخذوني مكبّل ومعصوب. شباب ما تعرفنا ع الضيف الجديد دلوني وين صار.؟! كأنه خرمد[٥٣]**

ردّ عبد الرحمن بتلعثم، دمدم اسمه على عجالة، فلم يفهم عليه، أعاد اسمه ثانية فردّ الشيخ:

– **والنعم، آني وين شايفك يا عبد الرحمن.؟!**

تعالت القهقهات، والكركرة فباغتهم صوت من وراء الباب المصفح:

– **شيخ عبود، اندفس أحسن ما فوت أخرا بنص وجهك.**

استكان الجميع وراح الشيخ يدمدم ببعض الأدعية، والسور القرآنية بصوت هامس خشية أن يسمعه فيعاود سخريته واستهزاءه بالذات العلية والقرآن والأنبياء. لوهلة شعر عبد الرحمن بخيبة أمل، لكنه

---

[٥٢] جحبولها: حجبوا لها؛ الحجاب، الرُّقية، التميمة. صبّحت: أصبح عليها الصباح.

[٥٣] خرمد: المخرمد المطرق الساكت ن ذل أو خوف؛ فصيحة متداولة في محكي الرقة.

وشكان ما وطن نفسه بهذا الطارئ الذي نقله نقلة جديدة، عندما قارن بين ما آل وما كان عليه، فالزنزانة مترامية الأطراف، قياساً بقبره السـابق، مزوّدة بصنبور ماء، ومرحاض داخلي يسمح له بقضاء حاجته متى شـاء، دون أن يطرق الباب، فيناله سباب، وضرب وشتم، وقد لا يقضي حاجتـه بعد كلّ ذلك. وما أسرّه أكثر وجود أناس من لحم ودم يشاركونه المكـان. على الرغم مـن خوفـه، وريبتـه المفرطـة تجـاههم فقـد حـدّس أنّ أولاد الأبالسة قد زجّوا به بين عتـاة المجـرمين، ليجعلـوه ألعوبـة بـين أيـديهم، يسومونه سوء العذاب. تقلّب يمنة ويسرة فنكـأ جراحـاً، ظـنَّ لوهلـة في خضم الأحداث أنها اندملت، تحسّس صـدره، وظهـره بـرؤوس أصـابعه، فتساقطت قطرات الدّم المتخثرة تحت تبانه الدّاخلي.

– **نام يا عبد الرحمن والصباح رباح.**

أفزعته رنّة هذا الصوت الـذي خاطبـه تحـت جـنح العتمـة، جهـد يحاول معرفة مصدر الصوت أو صاحبه، كان موقنـاً أنّـه صـوت مـألوف لطالما سمعه، أخفق في تذكره، سولت له نفسه النهـوض والسـؤال لكنـه خشي أن يسأل عن صـاحبه، خـاف أن ينهـره الشـيخ أو غـيره. ارتعـدت أوصاله رعباً، تخيّل العنصر يسترق السّـمع وراء البـاب، بـاءت محاولتـه بإخفاق ذريع، أسبل جفنيه يغالب النّوم حتى الهزيع الأخير مـن الليـل، حيث فقد القدرة على المتابعة، فأسلمه التعب والأرق لسنة نوم عـابرة، تدهدى بعدها في غيابة نوم عميق.



رأته قادماً مـن بعيـد ترجّـل مـن سـيارته، تقـدّم نحوهـا خطـوات، توقف فجأة عاد للسّيارة، أخـرج وردة حمـراء، حملهـا بمحـاذاة صـدره، اقترب بخطى واثقة، جثا على ركبته، رفع الوردة عالياً نحوهـا، ضـحكت،

غبّت ثغرها، وأنفها الصغير بيديها استحياء، تلفّتت حولهـا. لم يكـن ثمّـة أحد في الحديقة، على الرّغم من ذلك شعرت بحرج شديد، تلقفت يـده، أنهضته فتناهض بخفة. مشيا معاً، تنشّقت عبير الوردة، أثـار ذلـك فيهـا شعوراً بالغبطة، أمالت رأسها على كتفه، طواها بيده التي ألتفـت حـول خصرها وسارا بهوادة، لكنّها في تلك اللحظة، أحست بيد جاسـية تقـبض على كتفها بقوة. ارتعـدت فرائصـها، أحسـت برجفـة قويـة تسري فيهـا، باغتها صوت أجش كصوت والدها بفجاءة واستغراب:

- **توق!!! توق...**

انتفضت كأنثى حجل تطوقهـا الشـباك تحـاول فكاكـا دون جـدوى، استيقظت مذعورة من قيلولتهـا، فتحـت عينيهـا، فوجئـت بوجـه مـرح الباسم فوقها، ارتعدت لوهلة، أحست بيبـاس يجمـد معـالم وجههـا فـلا يغـادر سـحنتها لحظـة الهلـع المباغـت، اصـطنعت ابتسـامة جهـدت في رسمها لتبدو طبيعية انتظرت للحظة، استجمعت كل مواهبها التمثيليـة لتكتمل الابتسامة.

- **شـو حلمانـه بحبيـب الـروح.؟!.؟! حاجتـك نـوم، صـارت السّـاعة أربعة ونص.**
- **الصبح ولا بالليل.؟؟!.**
- **ولك تضربي ما أغلظك، العصر.**

نهضت جذلى، تثاءبت بكسل مطّت ذراعيهـا بقـوة، أعـارت وجههـا للمرأة، حركت قصتها قليلاً، تناثر الشعر حول جبينها، مدّت يـدها عـلى شكل مسدس قبالة صورتها في المرآة أطلقت من فمها صوتاً:

- **طاخ طاخ طاخ.**

قرّبت سبابتها من فمهما، نفخت عليها، خاطبت صـورتها المرتسـمة أمامها:

- **لقد قضيت عليك يا شر شبيلة.**

قهقهت بضحكة مصطنعة:

- **هههههههههههه**

دنت من المرآة، قبّلت صورتها، تلاشت ابتسامتها شيئاً فشيئاً، توجهت إلى المغسلة، رشقت الماء البارد على وجهها، قفلت راجعة نحو غرفتها جلست على طرف السّرير تفكر في التغير الذي طرأ على سلوكها، وتصرفاتها، حاولت أن تبعد هاجس الحبّ الذي روادها، لم تستطع، ظلت صورته مهيمنة على مخيلتها، هيئته، طريقة نطقه، دوائر الدّخان، بعض جمله بحرفيتها، حاولت تصيد كلمات ذات مغزى من كلامه لتبني عليها أحلاماً بغد أخضر.

- **والله وقعتِ، وما حدا سمى عليكِ، يا بنت!! ليس.**

قالت تلك الجملة لنفسها بحيادية وكأنّها تخاطب شخصاً آخر، خرجت إلى الشّرفة المطلّة على البحيرة عادت ثانية، ارتدت ثيابها على عجل، غادرت المنزل ضاربة في الطرقات. كانت نسائم نيسان الدافئة تعبث بالأكياس في الطرقات داعبت نُصة شعرها المتدلّية حول عينيها رفعتها عالياً، توقفت لبرهة لابثة في مكانها تفكر فيما فعلت، استغربت تصرفها المفاجئ، ونزولها العبثي، لا تعرف ماذا تريد والى أين تمضي.

مدّت يدها في حقيبتها لتخرج هاتفها المحمول، فتحت قائمة الأسماء لتهاتف مي، انزلقت بقائمة الأسماء، تتالت الأسماء، توقفت عند اسمه ملياً، ضغطت زر الاتصال، ثمّ ألغت الأمر ثانية، فطنت إلى أنّه الآن في وقت استراحته، ولن يكون في العيادة قبل ساعة أخرى. عادت أدراجها إلى البيت واجمة، متجهمة. ألقت حقيبة يدها بنزق، توجهت إلى أمها المنشغلة بتنظيف المواعين تناولت الصحن من يدها أوقفتها عن العمل وراحت تحدثها بلغة عالية مغرقة في الصور والتشابيه التي

تصور حالة الضياع التـي تعيشـها بعـد أن أبعـدها والـدها عـن المعهـد والتمثيل الذي تعتبره فرصة حياتها العظمى وعن رغبتهـا في العـودة إلى العاصمة لتمارس التمثيل أو العمـل في التلفزيـون لأنهـا وجـدت نفسـها تـتلاشى في دهـاليز هـذه المدينـة الصـغيرة الغافيـة عـلى النهـر بهـدوء. وجمت الأم التي لم تفهم كثيرا من العبارات المجازية المغرقـة في الحـزن والسوداويةً، مسـتغربة عـودة الموضـوع، بعـد أن ظنّـت أنّـّه نسي، ولم يعد قابلاً للنقاش ثانية، إثر ثورة الأب في آخر مرّة، يوم هدّدها بحرمانها مـن الوظيفـة، وحبسـها في البيـت. صـعرت الأم خـدّها تـداري عجزهـا مدركة أنّ القضية إذا أعيد فتحها، قد تجلب لهـا الـويلات ثانيـة، ربتـت عـلى كتـف تـوق بحنـان دون أن تنظـر في عينيهـا، خشـيت أن تخونهـا دمعاتها في لحظة ضـعف. تلقفـت الصـحن مـن يـد ابنتهـا لتهـرب مـن الحديث بالانشغال بالعمل. مدّت توق ذراعيها عالياً بغضـب، حـركتهما في الهواء، هوت بهما على جنبيهـا ركلـت بقـدمها الأرض، وهـي تدمـدم منصرفة نحـو غرفتهـا، ألقـت نفسـها عـلى السّريـر، احتضـنت الوسـادة، دامعة العينين. راحت تفكر بصوت عالٍ تسأل نفسها عما دفعهـا لطـرح الموضوع ثانية وهي تدرك في قرارة نفسها أنّها لو أتيحت لها العـودة إلى العاصمة فلن تعود، لأنّها تعرف صعوبة العمل الصحفي الحقيقـي، وأنّ الـدخول إلى التلفزيـون أمـر مـن سـابع المسـتحيلات دون وسـيط رفيـع المستوى وهذا الوسيط إما أن يقبض أو... راودهـا حلـم التمثيـل فنفـت الفكرة أيضا وهي تقول لنفسها:

- **كيف لك الدخول مجال التمثيل وانـت لم تتمـي دراسـتك.؟!. وإذا حصل وحدث هل تستطيعين مجـاراة مافيـات الممثلـين والمنتجـين والمخرجين!؟. وما يطلبـون مـن أجـل دور صـغير أنـت تحلمـين يـا مجنونة.**

فتحت مرح الباب مدت عنقها رانية إليها رنوة طويلة ثمّ سألتها:

- **مع مين عم تحكي توق؟!.**
- **آه كنت عم أتذكر مشهد أخدناه بالسنة التانيه.**
- **ايوا طيب سلمي لي ع البطل حبيبتي.**

رمقتها مرح بنظرة، غمزت بعينها اليمين زمت شفتيها كقبلة من بعيد، وهي تغلق الباب، وتعود أدراجها إلى المطبخ. فتحت الباب ثانية مادّة رأسها وهي ترقص حاجبيها بحركة متواترة:

- **بالمناسبة الدور لابسك لبس، ما قلتِ لي حبيبتي!؟، مين البطل.؟! أنا بعرفو.؟!**

صرخت توق وهي ترميها بوسادتها :

- **ولك حلي عني يا بايخة.**



تحوّلت المدرسة إلى ساحة أحداث متلاحقة غدت النّفوس فيها حقل ألغام تكاد تنفجر لأي طارئ. تكاثرت التحليلات، والتكهنات، والاستنتاجات تكاثر الطّحالب في صراة ماء، وصلوا إلى حد حمّلوا جاسم وعائشة وِزر ما حلَّ بالمدير، تكربس طاقم المدرسة في بيته، لم يتخلف إلا علاء، فذاك أمر لا يغفر في مجتمع، يتأرجح بين المدنية الوافدة وبقايا البداوة المتأصلة، وكما هي العادة تسرد أحاديث كثيرة حسب الحالة لأمراض وحالات عاشوها أو عايشها من يخصهم، ويخلص الجميع لتقييم الطبيب، ويعطى النتيجة بالفهم أو الغباء في تلك الجلسة، وينصح المريض بأخذ حبوب معينة، شفت أحداً، أو قريباً.

كان كيس الدّواء يُنقل من يد إلى يد، يتركه واحد يشخِّص ويحكِّم أمره في الدّواء والطّبيب فيتلقفه آخر. أمسك أبو جواد الدواء، تفحصه لم يعرف قراءة اسم الدواء إلا بجهد جهيد، وهو يدمدم ثمّ علق مخاطباً المدير:

- **يا سيدي!! هذن البلعات[٥٤] الحُمر والسُّود طيبات، بس هذا الدوا مو زين، ابن عمي قبل ما يموت خذا منه، بس ما جاب معاه فايدة -عليك رحمة الله يا حمدان.**

قاطعه المدير نابراً:

- **فال الله ولا فالك يا أخي الملافظ سعد، احنا مشكلتنا نحب الدكتور اللي يكتب أدوية كثيرة، هذاك اليوم خذيت أمي ع الدكتور قال ما بيها شي صحتها زينة طلعت تصيح هذا الدكتور أثول[٥٥] يقول ما بيني شي وآني مواتة[٥٦] وصرت من دكتور لدكتور كل ما فتت لعند واحد يتفحص كيس الدوا وينزل النظارة ويقول: مين الحمار اللي كتب هاذا الدوا.؟! ويرمي الكيس بالسلة ويكتب وصفة جديدة وتحاليل، وصور. والعجوز -الله وكيلك- ما بيها شي، حطيت الفوقي والجواي وما بي نتيجة.**

عندما دخل جاسم فجأة، وجم الجميع، لم ينهضوا لتحيته، اعتراه إحساس بأنه شخص غير مرغوب فيه، تعالى على شعوره كابر قليلاً، صافح المدير مقبلاً وجنتيه وهو في مضطجعه، فتصادف جلوسه قبالة فاديه وأبي جواد، رفع رأسه نظر في وجوه الحاضرين، لم يبادر أحد للترحيب به إلا حسين الذي رفع يده وهو ينظر إليه قائلاً:

- **مرحبا يا رجل، شلونك.**

ردّ جاسم بمودّة وهو وهو يرى الوجوه صادة عنه، صعر خدّه حين التقت عيناه بعيني فاديه، وأبي جواد، لم يكد يستقر حتى لكزت فيروز معاون المدير تململ الرجل، رتّب هندامه، وقف ينظر في الوجوه، فنهضوا جميعاً، انسلوا بهدوء، لم يتخلف إلا حسين الذي غمز له المدير

---

[٥٤] البلعة: حبة الدواء.
[٥٥] الثول: الحمق والجنون.
[٥٦] أكاد أموت.

ليجلس، عدّل المدير جلسته قليلاً، أشار لجاسم، فاقترب من مضطجعه، أمسك بيده بحنو وسأله عن وضعه في المصلحة، وجد جاسم في ذلك فرصة ليبوح بما يعتمل في صدره:

- **بصراحة كلها ألعن من بعضها، أول يوم داومنا تصور، لقينا قرار نقلنا سابقنا، وهاي نادرة تاريخية، شوف السرعة، طلبنا رئيس المصلحة، وبدأ زخ محاضرات بالوطنية، والروح القومية، والأخلاق، واللحمة الوطنية، وهالكلام الفارغ، حاول ينفش ريشو علينا، ويسوي حالو أبو علي، بس على مين!! آني أعرف كلّ شي، أبوي ما يقدر ألا على أمي، وين ما تروح، وبكل دائرة تلاقي فاديات، وعلاء، و أبو جواد، ومثلهم مثايل. يعني الوضع كله يهوي، الوظايف ليهم، ولولدهم وشبابنا طايرين ع الأردن ولبنان، يشتغلون عمال عتالة، وبيتون وحفر. وحظيط بخيت[٥٧] اللي يدبر واسطة، أو يدفع رشوة تا يوظفونو، وإذا وظفوه يمننونو بيها العمر كله، وإذا سلّموه سيارة، أو تعين رئيس دائرة يركبونو، ويدندلون رجليهم، ويصير علينا ألعن منهم، شي يطالع الواحد من دينو استغفر الله .**

شعر جاسم بالندم عندما وصف له استعراض رئيس المصلحة لعضلاته أمامه لأن الأستاذ علي اعتبر الكلام يمسه، ظهرت معالم عدم الارتياح على وجهه وهو يحاول أن يبعد نظره كيلا يلتقي بنظر جاسم وحسين، تنحنح غير مرة ليغير الموضوع أحس جاسم بالحرج، استأذن متعللا بتأخره عن البيت مغادراً برفقة حسين الذي أعاد فتح الموضوع عندما أصبحا خارجاً:

---

[٥٧] حظيظ: شديد الحظ؛ فصيحة متداولة في محكي الرقة. بخيت: فارسية معربة: محظوظ. متداولة في محكي الرقة.

- **المصيبة نظامنا ما يخاف الله، ولا يرجى عفوه، الله يلعنو كلما هز الچلب ذيله**

فردّ جاسم بحنق:

- **كلمة نظام تبعصني" احنا لليوم نسميهم نظام، هذول مو نظام، عصابة، مافيا، طغمة على رأي الناشطين، حول نتغدى ما دام صرنا جدام البيت.**
- **عامر يا أستاذ جاسم، أريد أروح أشوف المرا والعجان شي يريدون!! صار علمولي ألف مرة.**

صافحه جاسم بمودة، وانسرب في زقاق ضيق وهو يدمدم:

- **جايينك جايينك، يلعن روحك جايينك.**



تسربل الحنق قلبها، كأنها تستقل القلق وهي تركب السّيارة قاصدة الرّقّة للقاء مدير المكتب الصحفي. كانت عينا السائق الأربعيني تراقبانها في المرآة، فيتعالى حنقها، وارتباكها من نظراته التي تقطر شهوة وهو يمسح شاربه بظهر سبابته ليدفعه للأعلى، زاد من اشمئزازها، الحديث السّمج الذي كان يتنطع به مجنّد في ريق الصّبا عن مغامراته في الجيش، وكيف صرخ بوجه ضابط، ورفض أمر آخر، وضرب ثالثاً، تداعى إلى ذاكرتها أول تحقيق حاولت إجراءه في السنة الثانية من دراستها، حين اقترح عليها زميل تناول ظاهرة ذات فرادة، وتفتق ذهنه عن الكتابة عن حالة الغم والحزن التي تنتاب كلّ أسرة تودع ابنها وهو يغادر لخدمة العلم، تحمست للكتابة، ووصلت فيها إلى حقائق أذهلتها عندما تشعب الموضوع، فقد اكتشفت أنّ ذلك الأسى، مردّه إلى أنّ الأسر تعتبر ابنها فقيداً حتى يعود إليها، لأنهم يعرفون طبيعة تعامل الضباط مع العسكر، وعندما التقت بمن

أنهوا الخدمة، أدهشتها الحالات الكثيرة التي رووها عن شباب انتحـروا مـن قسـوة التـدريب، والتعـذيب، بعضـهم قتلـوا خطـأ، أو قصـداً، أو لأسـباب غامضة، وآخرين عـادوا مخبـولين، ومعتـوهين، وغـيرهم معـاقين مـن فـرط التعـذيب، أو الإهـمال عنـد إصـابتهم البالغـة أثنـاء التـدريب، فيرمـون في ثكناتهم أياماً، أو أشهر، ولا يسعفون إلا إن دفعوا للضابط المعني. حـدثوها عن انتهاكات صارخة من سلب للمال، وحرمان من الطعام، والإجازات مـا لم يدفعوا المبالغ المفروضـة. واسـتعبادهم لـذوي الحـرف ليعملـوا في بيـوتهم، وقصورهم، ومزارعهم خدماً وحرساً، أو سائقين عندهم وعند زوجـاتهم. أمـا المتعلمون فكانوا يرسلون لتدريس أبنـاء الضـباط كمدرسـين خاصـين بـدون أجر أما أبناء طائفتهم فكان لهم وضع خاص يحسدهم عليه الجميع. أشـياء كثيرة نسيتها منـذ أن ألقـت بـالتحقيق إلى سلـّة المهمـلات بعـد أن وبّخهـا أستاذ المادة بشدة ثـمّ طلـب زميلهـا الـذي اقـترح عليهـا الموضـوع، هـدّده بالفصل، والإبلاغ عنه. وبعد أن هدأ، جلدهما بمحاضرة عصماء عـن القـوات المسلحة، جعلها تكتشف مدى جهلهـا وعـدم معرفتهـا باختيـار مـا يناسـب حسب معطيات واقعها المعاش. حاولت جاهدة نسيان التفاصيل، واعتـبرت ما حدث ضرباً من البله الذي وصمت نفسها به.

ترجّلت مـن السّـيارة، نظـرت ملياً بوجـه المجنّـد، الـذي بـدا عليـه السّرور، والنّشوة ظاناً أنّها وقعت في حبائله، تمعنت بوجهه ملياً دون أن تعرف لما فعلت ذلك. استقلت سيارة أجرة أقلتهـا إلى المكتـب وقبـل أن تدخل، رفعت زيق القميص عالياً لتستر نحرها قدر ما تسـتطيع، لتتقـي نظرات إسماعيل الحرّى فكلما أعطته المواد يقرأ سطراً، ويخـتلس النظـر لمفرق ثدييها النّاهدين بين فينـة وفينـة، وهـي تقـف فوقـه بنـاء عـلى طلبه، متذرعا بعدم قدرته على فهم بعـض الكلـمات، أسـدلت قميصـها أسفل خصرها ارتقت السّلم دلفت بهدوء، رأته يقبع خلف مكتبه، يقـرأ من خلف نظارته الأنيقة، نقرت الباب بلطف، رنا إليها ثمّ عاود القراءة،

وهو يتمم بالترحيب بحرارة أقلّ من كلّ مرّة دون أن ينهض، لم يهرع إليها ليجلسها بجانب مكتبه كما يفعل عادة.

كان المكان عاجاً برائحة دخان أجنبي يتعالى من بين أصبعين ناعمين، لفتاة بيضاء البشرة، حدّست توق أنها فارعة الطول، جميلة القوام، صافحتها الفتاة ببرود، وتعال، تجاهلتها توق ناظرة إليه مستقرئة نظراته النّهمة إلى جليسته التي انشغلت بسيجارتها البنية التي ينبعث منها أريج عطر. ألقت مقالتها أمامه فتجاهلها ولم يحاول قراءتها إلا عندما نبهته لذلك مرتين. خفض بصره ببطء عن مُجَالِسَته، تناول الأوراق قلّبها بلا مبالاة واضحة، رماه بجانبه وانطلق يشكو لها حالة الصراع التي يعيشها الإعلام بين المحافظ والفرع، لان الكتابة عن جهة ما قد ترضي هذا وتغضب ذاك، وإذا سكت الطرفان، تدخلت فروع الأمن والجهات النافذة الأخرى. لجمت ثورة غضبها التي تصاعدت اقتربت منه أكثر وطلبت إليه البت بشأن ما كتبت بتوسل وقد بيّنت له صعوبة عودتها في يوم آخر، فقال بحرج:

- **تكرم عيونچ الحلوة، بس بدي فنجال[٥٨] قهوة تا يركد مخي، بس مين رح يسوينا القهوة!؟.**

نظرت إليه الفتاة البيضاء، وقالت بصوت ناعم رخيم:

- **أنا بعملها، بس بشرط، تعيد قراية فنجاني مرّة تانية، بلكي تغيّر شي. موهيك.؟؟.**

التفت إلى توق وتابعت:

- **عن جد نيالنا ع الأستاذ إسماعيل، وحياة الله تحفة، بيجنن، متلي بيحب الأبراج، وأخبار النجوم وبيقرا الكف شي غريب.**

---

[٥٨] فنجال: تصحيف لـ فنجان تقلب النون لاماً في هذه اللفظة في عامية الرقة.

تـذكرت تـوق مصـائد إسـماعيل منـذ مجيئهـا إلى المكتـب في زياراتهـا السابقة، عندما حاول غير مرّة، أن يقرأ الفنجان، فلم تأبه له، حاول أن يقـرأ خطوط كفيهـا، لكنّهـا رفضـت أن تضـع يـدها في يـده، كانـت تقـرأ أفكـاره المحمومة في عينيه اللتين تقطران شهوة عارمة، أبعدت تلك الـذكريات عـن ساحة تفكيرها، انتابها فضول جارف لمعرفة تلك الفتاة، فأخبرها أنها موظفـة جديدة على الملاك، عينـت بقـرار مـن المـدير العـام وهـو صـديق والـدها الأديب إبراهيم ناصر، فثارت ثائرتها بوجهـه عنـد ذلـك لأنهـم فوتـوا عليهـا الفرصـة، وهـي المجـازة إعلاميـا في حـين عينـوا مجـازة إدارة أعـمال بصـفة محررة، وأخبرته أنّ الناس ما زالوا يتحدثون باسـتغراب عـن دخـول والـدها اتحاد الكتاب، وهو لا يجيد التفريق بين همزتي الوصل، والقطع، ويشـاع أنّ هناك من يكتب له، فردّ عليها بجرأة دفعته إليها فورة غضبها، أن هذا حـال جميع المسؤولين الذين يعينهم الحزب دون النظر لكفـاءتهم. عنـدما انتهـى من كلامه، فطن لما قال، انتابه شعور بالخوف والقلق لانسـياقه وراء غضـبها الذي استفزه، فبـاح بـبعض مكنونـات قلبـه، تنـاول الأوراق، وراح يقلبهـا في حين انشغلت توق بقراءة عدد الأمس من الصـحيفة، تـذكرت كـلام محمـد عـن أخبـار الصـفحة الأولى التـي تتنـاول قائـداً فـائق الألوهيـة والعظمـة فتجاوزتها، وهي تضمر ابتسامة باحثة عن مادة لها في الصـفحات الداخليـة، لم تعثر على شيء، طوت الصحيفة بنـزق، وهـي تشـزر إيمـار التـي دخلـت، وضعت صينية القهوة على الطاولة قدمت له فنجانه بيدها، وهـي منحنيـة، خفض الأوراق، رافعاً بصره إلى نحرها، وطرفي نهديها المكشـوفين، وقـد تلعـا من زيقها كقبتي عاج، تنهـد بحرقـة، لم يرفـع بصره عنهـا، عنـدما اسـتدارت لتعود بالفنجانين الآخرين، انقضت سهام نظراته لتنغرز في زرّيهـا الممتلئـين، ومؤخرتها الرصحاء[٥٩]، الكربة المتكورة تحـت خصر أهيـف، وبطـن خمـيص،

---

[٥٩] الرصح: نتوء الأليتين.

دون أن ينتبه لنظرات توق التي كانت تراقبه باستغراب بالغ، وقد استفزتها هذه النظرة المبلّهة لأقصى درجات الحمق، والانبهار. نقرت بيدها على الطاولة، بعد أن تناولت من إيمار فنجان القهوة، فلم ينتبه أعادت الكرة ثانية، فارتعص مجفلاً وهو يدمدم كعادته بصوت حبيس في صدره:

- **قربانو، قربان المدكدك[٦٠]، هاي مرا والهضيلة[٦١] العندي مرا!؟ سبحانك تبلي وتعين!!.**
- **شكراً جزيلاً، أنا عن جد مشتهية فنجان قهوة. بس ما قلت لي شو اللي جابك على مهنة المتاعب؟!.**
- **أنا ما كان بدي، بس البابا هو اللي أمر، أنا أصلا ما بحب الصّحافة ولا الأدب بحب الأغاني الصاخبة، الرقص، الحفلات، متل الأستاذ إسماعيل، بحب الأبراج، وأخبار النجوم، بس شو بدي اعمل بالنهاية هو كلو شغل.**

هزت توق رأسها وهي تنظر في عيني إسماعيل الذي توقف عن القراءة وقال بتلعثم:

- **يعني آني أحب الأبراج والإخبار الفنية، بس طبيعي حبّي للصّحافة والأدب غير محدود، المهم إيمار مع الأيام تتعلم، وتصير بكره تحب القراءة والأدب، يعني مو معقول صحفي ما يحب القراءة مزبوط آنسة توق.!**
- **أي طبعا مو معقول الصحفيين عنا بيتعينوا حسب الكفاءة، مستحيل يتدخل مساعد بالأمن، أو مسؤول بهادا الأمر أعوذ بالله**

---

[٦٠] الدكدك: الأرض الغليظة المنبسطة وفي العامية يراد بها مربوع القامة الممتلئ الكرب الجسد.

[٦١] الهضيلة مقلوبة عن الهيضلة وهي المرأة الضخمة النَصف وقيل المسنة، أما في عامية الرقة فهي التي تجتمع فيها الضخامة والحمق والبلادة.

كلّ الصحفيين مثقفين وفهمانين دحي!! منشان هيك صحافتنا مدرسة عالمية بإنتاج المبدعين، وجمهورنا بيستنى الجريدة قبل ربطة الخبز. ما علينا، المقالات أستاذ .؟!

- **لسع ما خلصت منهن، اسمعي خلي إيمار تقراهن وتعطيني رأيها، وآني بعدين أقراهن وأرد لچ خبر على الهاتف شلون.؟!**

نترت الأوراق من يده، دلستها في حقيبة يدها، وخرجت مسرعة تكاد تميّز من الغيظ. أنزل النّظارة رمق إيمار بنظرة استغراب لا تخلو من غايات أخرى، وقال بسخرية:

- **آني مو معقدني ألا طلاب الإعلام واحدهم مفكر حالو حسنين هيكل.!!**

وقفت إيمار اقتربت من المكتب أكثر أمسكت فنجانه لتضعه في الصينية فامسك يدها قائلاً بتوسل:

- **خليه لسع ما خلصت منو.**

دلبحت أمامه وقد وضعت يديها على الطاولة وسألته:

- **مين حسنين هيكل أستاذ.!!**

راقبت عينيه اللتين تلتهمان ثدييها الناهدين فزادت انحناءها وكررت سؤالها بغنج:

- **مين حسنين هيكل.!؟**
- **هيكلين حسن واحد من أهم الكتاب الصحفيين بعصر الملك عبد الناصر جمال صاحب كتاب سنوات الغليان هذاك هو بالمكتبة إذا بدك إياه.**
- **كتاب أبراج.؟!**
- **هنّ من حيث أبراج، الصراحة أبراج، بس أبراج مرمر أبراج حليب ول قربانو.!!**
- **طيب، مين عبد الناصر جمال.!؟**

بلع ريقه وقال وهو يتمطق محدقاً:

- **الرئيس عبد الناصر جمال ملك تونس.!**
- **إي عرفتو.**
- **محمد دخيلك!! ثاريني عشرين سنه نايم مع زمله روحي الله يهدج يا خود العواد الخشم.**
- **مين هي أستاذ!!؟ كمان صحفية.؟!**
- **لأ زلمتي، قصدي مرتي.**

حرك رأسه قليلا وكأنّه يريد طرد هاجس ما وقال بصوت أجش:

- **أي ربيعتي[٦٢] هاتي هالفنجان خليني أدحج[٦٣] بيه زين بلچي أشوف شي جديد.**

أدار الفنجان بين يديه نظر إلى قلبه وقال:

- **شايف مراية فرح ودرب أبلج طويل مثل ثوب العرس وبتالي الدرب، زول شب لأ،لأ زلمة لابس نظارة، فاتح كتاب**
- **كتاب أبراج.؟!**
- **أبراج!؟ لأ كتاب سنوات الغليان، سنوات الحرمان يخرب بيتك يا خود يا طبجا[٦٤] اذا تشبهين النسوان، مدري كتاب ايش!! مو مبين عليّ، بس الزلمة أكيد عشقان، الصورة مغمغمة شوية، بي شغلات التبست عليّ، انطيني[٦٥] أيدك اليمين منشان أقاطع خطوط الكف مع الفنجان.**

---

[٦٢] الربيع والربيعة: الصديق والصديقة مشتقة من الربع وهم الأهل في الفصيح.
[٦٣] أدحج وفصيحها أحدج: أنظر بتمعن.
[٦٤] الطبج: استحكام الحمق فصيحة ما تزال متداولة في محكي الرقة، أطبج و طبجاء.
[٦٥] انطيني: أعطني وهذا ما عرف عند العرب قديماً بالاستنطاء وهو قلب العين نونا في كلمة أعطني.

وضع يدها براحة كفه، مسّد باطن كفها الرّقيق بيده الأخرى، قرّب عينيه أكثر وهو يتمطق، ثنى أصابع يده إلا السّبابة سار بها فوق خطوط كفها، تجاوز المعصم نحو السّاعد، قبض على زندها وقال بحرقة وتأوه:

– **الدرب رخف[٦٦] أبلج يتلجلج أحلس، أملس، شي يسيل روال[٦٧] الواحد غصبا عنه الله يخرب بيتك يا خود، درب كلها رياحين .**

❁ ❁ ❁

كُسرت سن الشيخ عبود وهو يلتهم البرغل المخلوط بالحصى والحجارة، شعر بألم يخترق رأسه ويشقه نصفين، لمع صليل الألم كومضة برق، زلزل كيانه، حاول احتماله دون جدوى، أطبق بيديه على صدغيه كفكي كماشة رضّ بقوة ليزيل الألم، كان الوجع يزداد ويتوسع ليشمل رأسه وخديه وكامل فمه، لم يعد قادرا على النطق إلا بصعوبة فتعالى أنينه، وصراخه للحظات، استنفد كل جلده، جأر بأعلى صوته، لم يستطع أحد أن يفعل له شيئا، فمجرد استدعاء الطبيب أو أي عنصر قد يجلب ويلات على رأس الجميع، لم يتمالك حميد نفسه، نهض كمجنون جمع أصابع يديه، وانهال ضرباً على الباب المصفّح الذي يمتصّ الضربة و لا يصدر غير صوت يتلاشى، لم يكف عن الخبط حتى صرخ أحد العناصر من خلف الباب:

– **مين عم يخبط الباب يا خراوات.؟!**

وجم الجميع، استدار حميد بعينين زائغتين فقرأ الخوف، والعتب في وجوه رفاقه الذين يعرفون عواقب الطرق على الباب في هذا القسم، استدار ثانية نحو الباب وصرخ من الكوة:

---

[٦٦] الرخف: في الفصيح الزبدة المسترخية الرقيقة، في عامية الرقية كل شيء رخو، لين، بض.
[٦٧] الرّوال: اللعاب؛ فصيحة متداولة في العامية الرقية.

- **الشيخ عبود جاعد يموت ابعثولنا الدكتور.**
- **هههههه ويموت بحفض طيزي.**

ساد الصمت، فأدركوا أنّ ذلك لن يجدي نفعاً، تحلقوا حول الشيخ، نظروا إليه بإشفاق وحزن، وهم عاجزون وهو يحاول النّهوض متخبطاً أسند يديه إلى الحائط، أرجع رأسه للوراء، وصار يضرب جبهته بالحائط حتى فجّ رأسه، سال الدم ليغطي كامل وجهه، استمر ينطح الجدار بضربات تزداد قوة وسرعة، حتى خرّ مغشياً عليه. هدأت الزنزانة هدوءاً مطبقاً، لا يخدشه إلا نشيج بعضهم، متأسين لحالته المزرية، وللمرة الأولى استبشروا خيراً، يشوبه خوف من سوء العاقبة عندما انزلق المزلاج برعونة، دخل عنصر لم يروه مسبقاً، بدا كتلة غريبة الشكل، متقاربة الطول والعرض، أشرم، جاحظ العينين، كأنما قد جمع من عدة أجساد، وقف وسط الزنزانة لوهلة وعندما رووا له ما حدث سجم لحظة، اتجه نحو الحنفية ملآ الوعاء ماء، رشقه على وجه الشيخ الذي انتفض خائفاً مخنوقاً يصرخ:

- **محمد دخيلك.!!**

تقدم حميد قائلاً:

- **سيدي، خليه نايم منشان يرتاح من الوجع.**
- **ومين قال انو نحنا بدنا حدا منكن يرتاح،؟! ليش عندي اوتيل خمس نجوم!!**

ألقى الوعاء جانباً، نفض يديه، وقال وهو يغادر مقهقهاً يغنغن:

- **قال ارتاح قال.!!**



عندما وصلت توق البيت، كان الجميع يتناولون طعام الغداء بوقت متأخر منتظرين قدومها تذرعت بعدم الجوع، دخلت غرفتها، ألقت جسدها فوق السرير دون أن تخلع ثيابها، شابكت يديها خلف رأسها، استعادت كلّ ما مرّ بها في المكتب بكلّ تفاصيله، تذكرت حركات إسماعيل، غنج إيمار، وبلاهتها وسطحيتها، ولم تنس ذلك المجنّد المغوار وبطولاته الخارقة، ابتسمت ابتسامة فاترة سرعان ما تلاشت عندما تذكرت هجومها السّاخر على الإعلام، والوضع السّياسي، دهمها خوف شديد من أن يصل ما قالت إلى الجهات الأمنية عبر آذانها المزروعة في الجدران، استغربت من نفسها هذا التّحول الكبير الذي بدأ يطرأ على سلوكها وتفكيرها، قفزت إلى ذاكرتها صورة محمد العيسى، وما دار بينهما في اللقاء الأخير، أدركت أن مشاعرها تتبلور شيئاً فشيئاً، دون أن تلحظ ذلك لانهماكها بأشياء أخرى، لمعت فكرة في رأسها أمسكت بطنها، وبدأت تتلوى، وتئن على السّرير رافعة صوتها ليسمع أهلها أنينها وطحيرها المتعالي.



كان نزلاء الزنزانة قد استيقظوا على وقع خبط أقدام الشيخ عبود على الأرض، ودوسه أطراف بعض السجناء الذي تأوهوا بألم كظيم، استيقظ عبد الرحمن ظاناً أنّ جلسات التعذيب قد بدأت طقوسها في مرتحله الجديد. عرك عينيه ليخفف الحرقة التي اعترتهما نظر ملياً إلى الجدران، رفع جذعه الخدر قليلاً، لم يصدق عينيه عندما رأى حميد العوّاد الذي أنعم النظر فيه راسماً ابتسامة عريضة، وقد جلس منذ دقائق ينتظر استيقاظه من سحابة نومه العميق. تعانقا عناقاً طويلاً أعاد لكليهما بعض الحياة والأمان فعلق أحد السجناء بصوت جهوري أجش:

- **(ظل الغريب على الغريب عباءة، تحميه من لسع الأسى التيّاه).**

انزويا في زاوية الزّنزانة غير بعيدين عن الآخرين، لكنهما شعرا بأنّهما في متكأ بعيد عن عالم الآخرين، كأنّهما في حضرة سعادة تطوي روحيهما في عناق سرمدي، التحمتا بعد غيبة طالت سنين عدداً.

قصّ عبد الرحمن عليه قصته كما حدثت، أخبره بكلّ صغيرة، وكبيرة، وهو ينصت بصبر نافد سرد له أحداث الجُمع الكثيرة التي تلت اعتقاله، وما حدث فيها نقل إليه خيبة أمله، وأمل أصحابه بعد عدّة أسابيع، لأنّ الأعداد كانت تقلّ بدل أن تتكاثر، وتزداد. سرد له أسماء الذي اعتقلوا، وغابوا، ولا أحد يعرف لهم مكاناً. كاد الدّمع يطفر من عينيه، وهو يصوّر له خيبة الأمل التي أصابته في أبناء جلدته الذين خذلوه بعضهم بالصّمت، وهم الأكثرية، وبعضهم بالانضواء تحت لواء قوى القمع، والقهر، والاستلاب، كأنّهم لا يعرفون الحقيقة، أو غيّبوا عنها بفعل سحر مكين. لم تبدُ الفجاءة على حميد كأنّه لم يسمعه فمال إليه وأوضح له الصّورة التي كانت غائبة عن ذهنه، حلّل الأمر بعين بصيرة، صارحه بأنّه هو نفسه قبل أن يمكث في هذا الحبس، كان يفكر بنفس الطريقة ويحلم ذات الحلم. لكنه بعد تأمل، أدرك الأسباب التي وقفت وراء هذا التخاذل، بأنّ هذه المحافظة كان يفترض أن تكون في أول عربات الثورة بل في عربة القيادة، لأنها نالت على يدي النظام أقصى درجات الإهمال، والتعتيم والابتزاز، جعلوها مصدر رزق، مصّوا دمها، لم يتركوا لأبنائها غير النزر اليسير، وفوق ذلك تصدقوا عليهم بمن بهذه الفضلة، والفتات الذي لا يُسمن، ولا يغني من جوع، سلبوهم أرضهم، وديارهم منذ أن غمرتهم البحيرة، رحّلوا قسماً منهم إلى الشرق، ليستوطنوا في القامشلي والحسكة، ليلعبوا بديموغرافيا المنطقة لوجود أقليات عرقية، أحلّوا محلهم أقليات أخرى، بعضها ضعيفة، وبعضها حاكمة بقوة سلطانهم، ومن بقي حكموه بالإرهاب، والترهيب سلبوهم

وظائفهم، سلبوهم كرامتهم وحياتهم ومن رفع رأسه زجّ بـه في السّـجن بتهمة الطائفية، أو بتهمة الخيانة، والعمالـة لليمـين، ألصـقوه بـالإخوان حيناً، وبالقاعدة مـؤخراً، زجّـوا بهـم كقطيـع عطـاش في بعـثهم الـرّجيم وصوّروه المنقذ، والمخلص، فأكمل على ما بقي بهم من رمق، وأجهز على من بقيت فيه بقية حياة، خمسون عاماً، وهذه المحافظـة بقـرة حلـوب خيرها لغيرها، وجوعهـا لأهلهـا الجيـاع المنبـوذين لأصـولهم العشـائرية، والبدوية المسلوبين حق الحياة، إلا كأتباع حتى غدوا ظاهرة ذيلية مثـل غيرهم من محافظات أخرى خلف مؤخرة النظام العاهرة.

سرّ عبد الرحمن بهذا التحليل والتفسـير الـذي يعيـه في أعـماق نفسـه، لكنّه لم يفكر به بهذا الجلاء، وأكثر ما أدهشه تفهم حميـد لإخفـاق الحـراك الثوري الذي ردّه إلى النظام الذي راكم الجهل، والأميـة طيلـة عقـود ليبقـي هذا البلد ملاذاً خصباً للوافدين من أبناء جلدته، فالمسيرة التعليمية متـأخرة عن نظيراتها في المحافظات الأخرى، متخلفـة عـلى أقـل تقـدير نصـف عقـد وكذلك بالنسبة للاجتماع والاقتصاد والثقافة وغيرها جعلوها مرتعاً ثراً لهـم، كلما أثرى واحد من زبانيتهم في سلك ما، أرسلوا موفداً جديـداً، ليـثري بعـد سلفه، وليخلفـه خلـف نهـم شره، يمـتص دمـاء البـشر كـالقُراد. لعبـوا بهـم بالفتنة العشائرية، جعلوا العشائر تتناحر فـيما بينهـا، أفهمـوا بعضـهم بـأنّ الثورة رجعة لعصر الإقطاع، خوّفوا بعضهم من الفوضى التي سـتعم، لوحـوا بالأمـان الكـاذب الـذي أوهمـوا النـاس بـه، والنـاس في هـذا البلـد، عـالمهم وجاهلهم يعرف أنّ الأمان كان مبعثه طبيعة النـاس في هـذه المنطقـة التـي تنأى بنفسها عن المشاكل، تركيبتهم الاجتماعيـة المتأصـلة هـي التـي تجعـل المرأة تخرج من بيتها في منتصف الليـل، لتحـادث جارتهـا تحميهـا الأعـراف والتقاليـد، لا سـيف الأمـن المرعـب، روى لـه قصـص أنـاس قتلـوا، وارتكبـوا الموبقات، ولم يوقفوا بفضل غناهم. لقد نجحوا حقاً في إدارة اللعبـة فولـدّوا الشّكوك عند بعض أبنـاء العشـائر، ومـن سـلم مـنهم مـن مغبـة التضـليل،

والشك، وقعوا فريسة الحقد على الثورة، لأن العشيرة الفلانية تشارك فيها، وقد وقف قسم كبير منهم مكتوفي اليدين ليس لقناعة، بل لخوف، فهذه المنطقة ما تزال مسكونة بعقدة الدَّرك، والخوف من ظلّ الشرطي بعد أن ذاقوا ويلات ذلك في الستينيات، والسبعينيات عندما تداهم مراعيهم سيارات الشرطة تعتدي على الرعاة، تنهب البيوت تسلب بعض الخراف بمعونة وتآمر مع المخاتير، ثمّ إذا حلّ الأمن، والمخابرات في الواجهة، رسخوا تلك العقدة وطوروها، أعادوا الناس لعهد العبودية، والرّق أذاقوهم كؤوس الذّل، والمهانة بذرائع كاذبة باسم ملاحقة فلول الإخوان، ومكافحة الإرهاب لاحقاً، حتى تأصلت عقدة الخوف من الدَّرك، وصارت جزئاً من تركيبة الشخصية البدوية القاطنة في هذه البريّة الجرداء على رغم غناها بالثروات، والمياه والخيرات. ويبدو أن الناس قد استمرؤوا هذه الحالة لخوف من التغيير والتجديد بعد أن توارثوا حالة الخنوع لأكثر من عقد. هذه المنطقة تشكل خليطاً اجتماعياً، متنوعاً من كلّ المحافظات ولا تقتصر على ساكني المنطقة الأصليين وهذا التنوع لم يكن في صالح الحراك الثوري، بل على العكس قوضه وقتله في مهده فعدم التجانس جعل النّاس تخشى بعضها بعضاً، فلا يأمن الجار جاره، والأخ أخاه، لأنهم زرعوا الشّك بين الناس، جعلوا كلّ طرف يظن بالآخر ظن السوء، وأوهموا بعضهم بأنّ الآخرين يريدون الاستيلاء على ممتلكتهم، أو يريد صاحب الأرض استعادة أرضه، وأنّ بعضهم يطمح بتهجير الأجناب الذين وفدوا إليها ليستولوا على البيوت، والممتلكات وقد صدرت بعض هذه التصريحات عن بعضهم إما جهلاً أو حمقا أو لغايات مدروسة من قبل الجهات المعنية. أما الأجناب فبعضهم شارك في الحراك الثوري بشكل مهم ولافت، أما البقية فقد انقسموا على أنفسهم، فوالى بعضهم النظام، وراح يضرب بيد من حديد على صدور المتظاهرين العزل، واكتفى بعضهم الآخر بالوقوف واجماً، وإن تحدث لم يزد عن كلام يخرج من الشفتين، دون أن يخرجوا عن نطاق

فعلهم الكلامي، لأنّهم اعتبروا ذلك فرض كفاية، لا فرض عين فهم في النّهاية يعتبرون أنفسهم أبناء محافظات أخرى، كان لها قصب السبق في الثورة فهم ينبرون في وجه الثوريين بأنّهم أبناء تلك المحافظة مُعيرين أبناء هذا المحافظة بأنّهم تخاذلوا في حين كانت أفكار بعضهم أكثر دناءة، وخسة إذ مالوا اللعب دور المتفرج الصامت فإذا نجحت الثورة فإنّهم سرعان ما يعودون إلى جلدة محافظاتهم التي وفدوا منها وإذا خمد الحراك وقتل في مهده، فهم في مأمن لأنّهم أبناء هذه المحافظة التي ظلت مستكينة. كان عبد الرحمن متعطشاً لمزيد من حديث حميد الذي جلا الغموض عن كثير من الأمور في ذهنه راغباً في الاستزادة منه لولا أن تدخل الشيخ عبود قائلا:

– **ما عرفنا تهمة الأخ عبد الرحمن.؟!**

– **تظاهر وتحريض ودعم مادي للمتظاهرين.؟!**

– **واعترفت.؟!**

– **طبعا لأ. يا شيخي ليش آني مجنون.؟!**

علق أحد السجناء قائلاً بسخرية:

– **المرجلة، مرجلة، بالحبس وبالشارع.**

تساءل عبد الرحمن عنه فأخبره حميد أنه الرائد المنشق عبد الناصر الدّحام، أُلقي القبض عليه وهو يحرض العناصر على الانشقاق والالتحاق بالجيش الحر وهو سجين سياسي سابق لعدة سنوات لأنه أظهر تعاطفا بذرف بعض الدمع عندما أعدم الرئيس العراقي السابق صدام حسين.

فردّ عبد الرحمن بثقة:

– **المفروض ننكر على أمل نخرج. إذا انحبسنا سنة ولا عشرة، ما رح نفيد البلد، شغلنا برا يفيد أكثر نرجع نتظاهر، نحرض وكل يوم نزيد فرد بصف الثورة.**

هزّ عبد الناصر رأسه إعجاباً بكلامه ومدّ يده مصافحاً:

- **على العموم هم ما رح يكتبون كلامنا واعترافنا، إحنا على الورق معترفين، قلنا أو ما قلنا، شوف هذا الشب** (أشار إلى شاب نحيل الجسد حنطي الوجه بدا ذابلاً منكسراً) **تعرف من هذا الشب.؟**

زمّ عبد الرحمن شفتيه ومطّهما للأمام وهو يرفع كتفيه للأعلى حتى غاص رأسه بين كتفيه.

- **الأخ جورج يوحنا جورج من أشقائنا المسيحيين.**
- **تعرف تهمته.؟!**

أعاد عبد الرحمن حركته السابقة.

- **أمير جماعة سلفية.**

ضج السجناء بالضحك، وتبعهم عبد الرحمن بعد لحظة صمت كأنه لم يصدق ما سمع. تعالت أصوات جلبة خلف الباب فركن الجميع إلى الهدوء. وفجأة شقّ الصّمت صوت المزلاج الذي سُحب برعونة، سكنوا جامدين، منتظرين من سيحل به البلاء، ليجر إلى جلسة تحقيق، تليها جلسة تعذيب، تحمله إلى الموت المحتم لساعة، أو ساعات، يعود بعدها جثة تتأرجح بين الحياة والموت، يعاني على أثرها ألاماً مبرحة، صرّ الباب صريراً شقّ القلوب نصفين، انجاب المشهد عن عنصر أُخلى الطريق لعنصرين كانا خلفه يجران رجلاً يسحل رجليه على الأرض، وقف الجميع ساجمين أفلتاه، فارتطم وجهه بأرض الزنزانة بقوة، وما إن انسلوا حتى تقدم حميد قلبه على ظهره وهو يتنفس بصعوبة بالغة وينفث نفيتا خافتاً، يحشرج، كأنّه في الرّمق الأخير هُرع عبد الناصر إلى الحنفية تناول جورباً قديماً، لم يجد غيره، بلّله بالماء، مشّ وجهه المدمى، المعفر بالجورب تداركه سجين آخر بوعاء صدئ ملأه بالماء عصر الجورب فيه فصار الماء أحمر قانئاً، ولما تجلّت معالم الرجل شبه

واضحة، نظروا بفضول ليتعرفوا إليه جمدوا في أماكنهم، دقت قلوبهم بسرعة كبيرة، اقترب عبد الرحمن منه أكثر تحسّس وجهه وصرخ:

- **مو معقول.!!**

تردّدت الكلمة من أكثر من فيه.؟

صاح الشيخ عبود وقد توقف عن العبث بفدوع كعبي قدميه العميقة:

- **خير، خير!؟؟ خوفتوني اش صار؟! منو المحبوس الجديد...؟!**

جاء الجواب متواترًا من كثيرين:

- **مو معقول. مو معقول.؟!!!!**



ضربت بإلحاح والديها عرض الحائط، ولم تخرج إلا عندما تيقنت أنّ دوامه في العيادة قد أوشك على الانتهاء، وقد بين لوالديها ضرورة مراجعتها للعيادة، ليقوم بكشف أدق بعد أن قام بالكشف عليها في البيت ولم يقف على أي سبب يعزو إليه شكايتها وقد حاولت الأم مرافقتها بيد أنها أصرت ألا يرافقها أحد، تأكيده على ضرورة المراجعة بدا إجراء احترازيا صرفا، لكنه في مصارحة مع الذات أعترف لنفسه أنّ الأمر لم يخلُ من غايات أخرى. اتخذت مكانها المعهود في صالة الانتظار الشاغرة، وما إن خرج المريض الأخير حتى دعتها الممرضة وهي وتغادر منصرفة.

أعاد طرح الأسئلة المتعلقة بحالتها، سألها عمّا تناولت، وما شربت، استفسر عن حالتها النفسيّة، لم يستطع الوقوف على أي شيء يحدد له سبب الآلام التي تعانيها. أشار لها أن تصعد إلى سرير الفحص، وضع السّماعة على صدرها، استغرب سرعة دقات قلبها على الرغم من أنها نفت شعورها بالقلق والخوف، وأكدت له أنّ هذه التسرع أمر عابر لم تواجه مسبقاً، دفعها من كتفها فاستلقت على ظهرها. طلب إليها أن

تكشف عن بطنها فدسّت يديها تحت محزمها سحبت قميصها كاشفة صدرها كاملاً. ضغط على البطن وهو يسألها عن موضع ألم فتجيب بالنفي نزع السمّاعة، قال باستغراب:

- **لا يوجد أي عارض جسدي لهذا الألم!! قد أعزوه لسبب نفسي، هناك بعض التشنج بالمصران قد يكون هو السبب!!.**

أدخلت أصابعها تحت حمالة نهديها سحبتها بقوة إلى الأعلى فانتفض نهداها الأملودان متحرران ارتجا كقطعتي هلام تكورا كتوأمي حجل ينفضان البلل، بلّه فيهما وهما يرتجان تخيلهما حمامتين بيضاوين تهمان بالطيران، سحبت يده وضعتها فوق ثندوتها[٦٨] ليجس موضع الألم، حاول وضع السمّاعة قرب نهدها فأوقفته بسرعة قائلة:

- **حاول أن تسمعه بأذنك المجردة، كما كان الأطباء الأقدمون يفعلون ذلك، العلم الحديث أفقد الطب روحانيته.أحياناً تسمع الرّوح وجع الرّوح، والقلب وجع القلب أكثر.**

سكن لبرهة، شعر بارتباك، وحيرة، تملكه قلق، استعاد ما قالت في ذهنه مما فهم، خشي أن يذهب وراء ظنونه وشكوكه، دهمه خوف شديد من أن يقدم على شيء ويكون قد أساء الفهم، ربما لم تقصد ما دار في ذهنه فيوقع نفسه في ورطة لا يمكن الخروج منها خاف أن يخسرها في تلك اللحظة. عرف أنّها تشكل هاجساً كبيراً في حياته، مجرد خسارتها يعني انهياراً كبيراً. حاول ممانعتها بوضع السماعة، لأن ذلك أجدى، لكنّها أصرّت، اقترب بهدوء وتردّد لامس خدّه جلد صدرها الرخف وخزتها شعرات لحيته الكثّة العاسية، أثارت فيها قشعريرة، الصق أذنه بصدرها. لامس خدّه ثندوتها، تعالى نهدها الكرب أمام عينه كرة من بياض معشّقة بخطوط زرقاء خفيفة تتراءى تحت جلدها

---

[٦٨] الثندوة اللحم حول الثدي.

الشفيف، تتوجه حلمة وردية اللون كبتلة جورية، تطوقها اللعوة التي انساب لونها ليشكل دائرة زهرية حول الحلمة، تذكر أغنية مولية كان يردّدها لنفسه دائماً:

أخوي يا صاحبي وإنْ متت تدفني بين القبب القُرن ونهود البنية

نقل رأسه إلى الجهة الأخرى وهو يطلب إليها أن تتنفس، وتكح فتستجيب بسعادة، بدّل بين أذنيه، فصار وجه قبالة وجهها، رآها وقد عضت على برطمها بأسنان بيضاء وقد ظهرت فلجتها الصغيرة استدار ثانية وقد استمرأ ما يحدث بوجل، وريبة، تمالك نفسه تنحنح بلطف، أخذ السماعة وقد همّ بوضعها على أذنيه فالتقفتها منه، وضع يده تحت ظهرها أنهضها فاعتدلت جالسة، الصق رأسه بظهرها منصتاً وعيناه تنحدران مع شلال بياضها الذي ينحسر متضيقاً عند الخصر الضّامر ثم يتسع عند وركيها.

- **لاشيء غير عادي. على كلّ إذا استمرت الحالة، علينا القيام بإجراءات أخرى كصورة صوتية(ايكو) وتخطيط لضربات القلب، على أني أستبعد كلّ ذلك، حالتك مجرّد وهم، صحتك أحسن من صحتي بكثير.**

استلقت على ظهرها ثانية لبثت لا تحرك ساكناً، وهو يقف فوقها. أمسك يدها برفق، نظر إلى صدرها الذي طفحت منه حبوب صغيرة وقد بزرت حلمتا صدرها وكبرتا قليلا، جسّ الحبيبات برفق. رمعت، أمالت رأسها نحو الجهة الأخرى، عضت على شفتها السفلى وهي تكتم أنيناً كاد يغالبها.

- **هل تشعرين بالبرد.؟!**

لم تجب، تململت قليلاً تحسّست صدرها بيدها اليسرى. تلاقت يداهما، قبض عليها بقوة، حرّكت رأسها بالنفي.

- **هذه الحالة تصيب الإنسان في حالات البرد والخوف.**

سلّ يده، عاد ليستقر خلف مكتبه، نفث دخان سيجارته نافثاً، وهو يحك شفته السفلى بثناياه، تعالى صوت من أعماقه:

- **لا تسِءِ الظن، قد تكون البنت متألمة حقا!! وعييت عن كشف المرض، ربما تختبرك!!؟، أو تورطك.؟!!ماذا لو أقدمتَ؟!! وصرخت بوجهك!! ستخسرها، ستخسر سمعتك كطبيب ناجح، أنت حكيم وعفيف ولست جباناً.**

خبا الصوت، تلاشى، تعالى جَرْس خفي في أعماقه البعيدة قائلاً:

- **يا مهبول!! البنت تمارضت منشان تزورها بالبيت، أخرت زيارتها لنهاية الدوام!!، فحص بدون سماعة!! يا فلو[69] اش مستني واضحة، الحمار يفهمها قوم، قوم طفّي نارك، برّد قلبك الملهوف قوم، قوم، قوم...**

بدأ الصوت يعلو صاعداً من أعماقه البعيدة، يقترب أكثر فأكثر نهض واقفاً، وهو يلحس شفتيه ويرطبهما بلسانه، فتح عينيه أنعم النظر، تهاوى على المقعد، وهو يشاهد سرير الفحص والعيادة خاويةً.



تصادف وصول عائشة وجاسم عند مدخل المصلحة، دخلا سوية إلى غرفة مراقب الدوام. كان المكتب يغص بجمع من الموظفين كعادتهم الصباحية، حيث يجلسون في المكتب لبضع دقائق، للمقارضة[70] واحتساء الشاي والقهوة قبل أن ينصرفوا إلى مكاتبهم. عندما همّا ينصرفان أخبرهما المراقب أنّ رئيس المصلحة يريدهما. شعرا بانقباض لهذا الطلب الذي سينم

---

[69] الفلو: ابن الحمار والفرس وفي العامية الأحمق الأرعن.

[70] المقارضة: لوك سيرة الناس.

عن مجالسة لا تخلو من استعراض عضلات، وتوجيهات بلهاء، ونصائح مبطنة بالتهديد. لم يكن بوسعهما التهرب من الأمر، فقد خشيا أن يعتبر ذلك تحدياً سافراً من معاقبين منقولين في بداية عملهما في هذه المصلحة. لم يدم اللقاء طويلاً، فقد تلخص في قرار صغير يقضي بوضعهما تحت تصرف رئيس الديوان ريثما يجد رئيس المصلحة مكاناً شاغراً لهما. لم تفهم عائشة فحوى هذا القرار حتى بيَّنه لها جاسم بأنّه محاولة لوضعهما تحت رقابة صارمة، فلما ولجا الديوان أثار جاسم جلبة، وعائشة تنظر إليه بابتسامة طفيفة لإدراكها مراميه من وراء ذلك. أشعل سيجارة فانتفضت سماح بغضب طلبت منه الامتناع عند التدخين فلم يأبه لها أشعل سيجارة أخرى قدمها لعائشة التي راحت تدخن نكاية لأول مرة رفع قدميه وضعهما فوق الطاولة الصغيرة فخرجت سماح مسرعة نحو مكتب المدير الذي أرسل في طلبهما ونقلهما إلى قسم الشؤون الإدارية في ذات المكتب الصغير الذي كان يعمل فيه عبد الرحمن. شعر جاسم بفرح غامر في الدخول إلى هذا المكان وقد خالج فرحه حزن وأسى، وهو يتذكر عبد الرحمن المغيب، ولا أحد يعرف عنه شيئاً.



تبعتها أمها بوجه شاحب يعتريها قلق وهي تحمل كوب بابونج ساخن، غادرت الغرفة عندما دخلت مرح باسمة وقالت وهي تغمز لها:

- **هادا البابونج لازم اشربه أنا، أنت صح مريضة بس البابونج ما رح يفيدك.!! أنت لازم تطلعي، تمشي، والأفضل يكون معك شي حدا منشان تاكلي هوا، قصدي تشمي هوا منيح يا روحي.**

انقلبت توق إلى الجهة الأخرى، نهضت مرح، مشت لتصبح قبالتها، قرصتها من خدّها، وقالت وهي تكزّ على أسنانها بقوة:

- **دخيل المرضان!! العمى بعيون الدكاترة مفكرين حالن فهمانين!! لك أنا لحالي عرفت علتك.**

سحبت المخدة من تحت رأسها وهوت بها على وجه مرح التي أغلقت الباب منصرفة تقهقه. تداعت ذكريات زيارتها له في العيادة بكل دقائقها، حاولت أن تستبعدها لم تستطع، هيمن المشهد على ذهنها، جهدت تبحث عن سبب يفسر لها ما أقدمت عليه. طرحت على نفسها أسئلة كثيرة لكنها لم تجد إجابة شافية، قالت لنفسها(يا ترى كان بروفه يا بنت ولا..؟! يعني حنيتي للتمثيل) وسرعان ما نفت هذا الهاجس الذي لم يقنعها، فهي تعرف ما كان يدور في سريرتها، لم يكن مجرد مشهد تمثيلي إنما مشهد حقيقي عاشته بروحها ووجدانها.

جلست محتبية فوق سريرها، أمالت رأسها على ركبتيها، أمعنت النظر بطاولتها فرأت الرواية الأخيرة التي أهداها لها، تذكرت يوم اتصل بها، سعدت بمخابرته كان صوته يفيض فرحاًوسروراً، تسارعت دقات قلبها بقوة، شعرت بخفة جسدها الذي يكاد يطير كانت تحادثه، وهي تنظر إلى وجهها في المرآة، تداعب خديها اللذين توردا، وقد تدفق الدم فيهما، ترسل لصورتها في المرآة قبلاً، ثم تجعل يدها على شكل مسدس، تطلق النار على نفسها، وتبتسم وهي تحاوره، بغبطة، كانت لحظة فرح غامر لم تعشها قبلاً، وعندما أغلق الخط، ألقت الجوال على السرير، ثم عادت حملته ثانية، قبلته، ضمته إلى صدرها ودارت في الغرفة دورات متتالية حتى فقدت توازنها، انكبت على السرير والأشياء ما تزال تدور حولها، أخرجت من خزانتها أحب ثيابها إليها، ضمّخت صدرها وجيدها بالعطر، تمعنت بالمرآة كثيراً ثم خرجت وزوبعة عطر تتضوع حول جسدها الناحل لتلقاه في بيت مي كما طلب منها وعلى جناح السرعة. نسيت لفرط لهفتها مصافحة مي وعناقها، دلفت مسرعة اتخذت المقعد

الذي يحاذي مقعده مشكلاً معه زاوية قائمة، لتتاح لها رؤيته بشكل غير مباشر، وجهه المترع فرحاً وسروراً جعلها تغتبط أكثر، فاضت سريرتها سعادة، كانت متشوقة للحديث معه لكنها كابرت جلست على نار منتظرة أن يبدأ بالحديث الذي باغتها بخيبة أمل عارمة عندما سلّ وريقة من جيبه ألقاها أمام مي متجاهلاً وجودها ليخبر مي أن إصابتها بمرض الناعور[٧١] ليس صحيحاً مؤكداً حدسه يوم حدثته عن ذلك لوجود أشقاء معافين لديها، كادت أن تنهض مغادرة لولا أنها انتبهت لحالة مي المريعة، دارت عيناها نصف دورة للأعلى، استقر بؤبؤاها تحت الجفن، خرّت مغشياً عليها، وعندما استعادت وعيها دخلت في حالة هستيرية تمازج فيها الضحك بالبكاء، والحزن بالفرح، وفي غمرة ذلك قامت بتثاقل اقتربت منه، قبلته قبلة طويلة، احتضنته بحرارة وقالت تمازحه:

- **يا أبو جاسم يا شاوي ليش ما سألتني من زمان.؟! آه لو الزمن يرجع لورا لكنت نسفت جيداء وأخدتك.**

ضربت بقبضة يدها على دثار السرير، نهضت باتجاه طاولتها أمسكت الرّواية رفعتها عاليا لتلقي بها من النافذة، أنزلت يدها ببطء أعادت الكتاب، ركضت إلى السرير ألقت جسدها مكبة على وجهها غارقة في سحابة حزن، وغيرة عاتية.

❁ ❁ ❁

أقفل محمد العيادة على عجل، عاد إلى البيت. كانت السّاعة قد تجاوزت التاسعة مساء، حيث جلست جيداء تشاهد قنوات التلفزة التي تعرض صور المجازر، والمذابح التي ارتكبها النظام بحق المدنيين في

---

٧١ الهيموفيليا

عدة مناطق. استغرب تصرفها فقد كانت تغير القناة فور دخوله، وتنتقل إلى القنوات الموالية بغية إثارة حنقه، لكنّها هذه المرّة لم تكترث لوجوده، ظن لأول وهلة أنّها لم تشعر به، لكنه تيقن أنّها تراه، عندما نظرت إليه بعينين مغرورقتين وقالت:

- **بدك شي.؟!**

استغرب خروجها عن صمتها بعد نيف وشهرين، لم يجبها، اتجه إلى غرفة الضيوف، استلقى على الكنبة الكبيرة، أشعل سيجارة، أمعن ينظر إلى السقف وصورة توق لا تفارق ذهنه. تذكر المشهد بكل جزئياته، وتفاصيله، هيمن منظر جسدها الحليبي على خياله. حلّ ربطة عنقه، فك أزرار القميص، مسّد شعر صدره الكثيف، فرك حلمة ثديه الأيسر بين سبابته وإبهامه، فتهيج أكثر، أغمض عينيه فتراقصت في فضاء الظلمة هالات ضوء، وخطوط تشبه النيازك صرّ عينيه أكثر، حاول أن يستعيد المشهد ثانية بكل تفاصيله عيي عن ذلك، نهض بتثاقل، اجتاز غرفة الجلوس، ألقى نظرة على التلفاز، شاهد مناظر الدماء، والأشلاء التي يعلق عليها أحد الناشطين باكياً بحرقة، توقف يراقب المشهد عن كثب.

كانت جيداء تقبض على جهاز التّحكم تبحث عن قناة ثانية، توقفت عندما رأته مشدوها، ألقت الجهاز من يدها، خرجت نحو المطبخ ثم عادت على عجل، هزّ رأسه بحزن وأسى. سار نحو الحمام فشاهد الركوة على النار ثار استغرابه لعلمه أنّها لا تشرب القهوة في المساء، لكنه عزا هذا التغير إلى ما شاهدت من مناظر الوحشية، والقسوة. أشعل مدفأة الحمام، رجع إلى غرفة الضيوف كبّ على وجهه لم يرفع رأسه، صرّ باب الغرفة صريراً طفيفاً. حاول أن يجلو الصورة في ذهنه، لم يقدر، لم يفهم أسباب كلّ هذه القسوة، والعنف الذي يمارسه نظام مستبد بحق أطفال خرجوا بصدور عارية، يطالبون بالحرية بشكل سلمي. شعر بغضب، وحزن كبير، لأنه يقف في

المنطقة الوسطى عاجزاً، لا يستطيع أن يمضي إلى الجهة المقابلة، ليقدم العون لهم، ليصرخ بملء حنجرته مثلهم "حرية، حرية..." اعتراه خوف عارم عندما تصوّر نفسه يقف وسط الجموع، يصرخ بأعلى فيه: "حرية، حرية سلمية، وفجأة يظهر مسلحون بثياب سود يقفزون من ظهور سيارات مكشوفة، ينهالون على الأطفال ضرباً، ويناله قسط وفير من الضرب، نفض رأسه محاولاً إبعاد هذا التّصور. رأى صينية القهوة بجانب الكنبة، لم يصدق ما رأى، لكنّه تيقن بوجودها عندما فرك عينيه تساءل عن سرّ هذا التّحول المريب في سلوك جيداء. ما الذي أخرجها عن قطيعتها وحردها!؟ منذ ما يزيد عن شهرين ونيف!! كاد أن ينهض متجهاً إليها ليسألها عن سر هذا التّحول، هل أدركت الحقيقة المجرّدة دون زيف!! هل وعت القضية وأدركتها.؟!وعرفت أنها على خطأ!! أم أن الضبعة[٧٢] اشتدت بها فحاولت استجراره.؟!خانته شجاعته، خاف أن يقدم على خطوة يندم بعدها، كما سبق وحدث مرّات ومرّات. عندما يتنازل محاولاً استرضاءها، فتزداد تعنتاً وصلابة، انتابه شك بأن يكون فنجان القهوة مسموماً، بيد أنّه نفى لنفسه ذلك الهاجس، رفع الفنجان ارتشف حسوة منه فرآها ماثلة أمامه:

- **بدي أعطيك جسمي لآخر مرّة.**

صعقته تلك الجملة، خيل إليه أنّه سمعها بينه وبين نفسه، لم يصدق أنها قالتها بتلك الحيادية، والبرود. وكأنّ الأمر مجرد شيء تافه لا يعنيه ولا يعنيها مطلقاً:

- **بس بكره تطلقني، إذا انتصرتوا ما رح تسامحني، وإذا انتصرنا، رح تكون الحياة معك مستحيلة، أنا بغرفة النوم.**

استدارت بهدوء، غادرت الغرفة بمعالم وجه قاسية، وحيادية، لا تنم عن سرور، أو حزن، كأن وجهها قد قدّ من شمع. لم يتزحزح، قبض على

---

[٧٢] الضبعة: الغلمة.

خصلة من شعره، وراح يبرمها حول سبابته حتى انحلت بعض الشعر دون أن يحس بألم، وهو يفكر بما سمع، كأنّه يشاهد فيلماً أجنبياً، تلاشت رغبته المحمومة فجأة شعر بالاشمئزاز لم يتصوّر أن يكون الوضع ذات يوم على هذه الشاكلة، وإنْ لم يستبعد يوماً طلبها الطلاق، كان أسعد الصغير الذي أحبّه كما لم يحبّ شيئاً في الدّنيا نُصب عينيه دائناً، فقد قرر للاستمرار بتمثيل دور الزّوج مع إيقاف التنفيذ سنوات أخرى، على ألا يفكر مجرد تفكير بالابتعاد عن أسعد.

جعلته فترة الحرمان ضعيفاً، ومیالاً للاستجابة بيسر، كان متوجساً من أن تنقلب الحالة وبالاً عليه. قاوم رغبته المحمومة المكبوتة. أحس بضياع يجتاح روحه، وكيانه، كأنّه يتيه في قيعان سراب. تململ في مكانه، همَّ ينهض غير مرّة، لكنه تراجع، قرّر أن يخرج من المعركة بخسائر قليلة. قام بهدوء اتجه إلى المشجب، تناول برنس الحمام، ألقاه على كتفه، اتجه إلى حمامه، فتح صنبور الماء، فاندفع الماء الساخن من الدوش يفوح معه البخار الحار ، ملأ المكان أغمض عينيه، تخيل معالم جسد توق الحليبي الأبيض لم يمارس عادته السّريّة كما تعوّد أن يفعل كلـّما اشتدت غلمته، ليستمتع بالحالة أكثر، ولكي لا يشعر بالتقزز والندم.

۞ ۞ ۞

دهش جميع من في الزّنزانة عندما رأوا وجهه بأم أعينهم صرخ حميد بصوت متهدج:

- **المساعد علوان.؟!**

تذكر عبد الرحمن ذلك الوجه الذي يفيض قسوة وحقداً، تداعت صور تعذيبه له في أول يوم أُعتقل فيه، قبل أن يرحّل إلى دير الزّور، ليستقر في هذا القسم الذي لا يبعد عن جهنم إلا قليلا كما كان يعتقد.

الهاجس الذي خطر في باله دار في أذهان الجميع، فقد ظنّوا للحظة أن إرسال الرجل قد يكون مصيدة للتنصت عليهم، ووشكان ما نفوا ذلك. فالأوضاع تغيرت، النظام الآن لم يعد يحاسب على الكلام، بل على الفعل. أنهضوه بمساعدة جماعية، جرّوه برفق نحو الجدار، كان منهكاً غاية الإنهاك، والإجهاد، فقد ظهر لهم شدّة تعرّضه للضرب المبرّح. بعض السجناء تشفوا به. فغير واحد منهم مرّ تحت يديه وكال له السّباب والضرب، كان من قساة المحققين، يجاهر بمعاداته للثورة، يتوعد المتظاهرين بسوء العاقبة كلّ جمعة، إبّان خروجهم من الجامع، حتى أشيع أنّ المتظاهرين قد أهدروا دمه لشدّة ما لقوا منه، ومن عداوته التي لا مسوغ لها، إلا رغبته بتبييض صورته أمام زملائه من الطائفة الأخرى، لينال الرضا، كان يكلف نفسه فوق طاقتها، ليبدو في أعينهم نصيراً صادقاً، مؤمنا بنظامهم كان يستعذب دعوة خطباء المساجد إلى القسم يتركهم لساعات ينتظرون في الحرّ والقرّ، ثمّ إذا خلا بأحدهم، أجلسه قبالته بعد طول وقوف، يجلس وراء مكتبه، يرفع رجله فوق الطاولة لتكون بوجه الإمام ويغرف من معين سخريته، ويلقي في وجوههم، يهزأ من كلّ شيء، ذات يوم دعا أحد الخطباء لأنّه قال في الدعاء اللهم أصلح الراعي والرعية سفع وجهه بكل قوته وصرخ بوجهه:

- **بدك تصلح رئيس الجمهورية يا ديوس[٧٣]!! يا ابن الصرامي!! ولك رئيس الجمهورية أصلح من خلفاءك ومن سنتك كلها من أول سني لأخر كلب.**

عندما استعاد بعض قوته رفع جذعه قليلاً، وروى لهم ما حدث معه، حين حمل هراوته يوم الجمعة الفائت ليريح زميله الذي تعب وهو يعذب السجناء، وعندما دخل الزنزانة وجد ابنه أحمد المعاق

---

[٧٣] ديوث.

بينهم كانت الدماء تغطي جسده صدم حين رآه، هرع إليه احتضنه، فانهال عليه العنصر ضرباً وهو في حضنه، صرخ بوجه زميله بأنه ابنه، وأنه معاق عقلياً، غير أنّه استمر يضربه، لأنه رمى حجراً على صورة الرئيس عندما كان يحاول رميها على الأطفال الذين لحقوا به، وهم يصرخون حمودة المهبول لم يتمالك نفسه، دفع زميله في صدره فثارت غضبته تعاركا داخل الزنزانة، وعندما وصل الخبر لرئيس القسم جنّ جنونه، لما فعل علوان الذي ضرب عنصراً من طائفته.

- **اللهم لا شماتة، بس منشان تذوق من نفس الكاس، بدك أذكرك كم طفل اعتقلتم!؟ كم معاق ومتخلف ضربتم، وأنت بالذات كان عتبنا عليك كبير يا علوان لأنك من لحمنا ودمنا، بس أنت بعت حالك للشيطان وكنت ملكي أكثر من الملك.**
- **معقول بعد خدمة عشرين سنة يندارون عليّ.؟!.**

توقفا عن الكلام عندما بدأت أركان الزنزانة ترتج تحت وقع صرير عجلات الدبابات التي كانت تتحرك للمرة الأولى في ساحة الفرع التي تعلو الزنزانات. أيقن الجميع أنّ الوضع يتطور، نحو مزيد من الانتصارات على الساحة الخارجية. ولا بد من أن ما سمعوه من الانشقاقات، قد طال صفوف فروع الأمن، وما رافقها من تحركات لتحرير السجناء، قد وجد ما يؤكدها. نهض الشيخ عبود واقفاً، وصرخ بملء فيه في وسط الزنزانة:

- **الشعب يريد إسقاط النظام.**

ران صمت ثقيل، وفجأة عادت الأصوات من جميع الزنزانات الجماعية والانفرادية صادحة:

- **الشعب يريد إسقاط النظام.**

❁❁❁

افتر ثغر مي ضاحكاً، عندما رأته يدخل الصّالة، بكامل أناقته، قامته الضخمة، لحيته الكثة التـي يتركهـا لأيـام دون حلاقـة، عينـاه المـدورتان، العميقتان، شفته السفلى التي تتدلى قلـيلاً عنـدما يفـتر ضـاحكاً ضـحكة طفيفة لا تفارق فمه عندما يتحدث، اطمأن قلبها بوصـوله، فقـد كانـت شغوفة لسماع أرائه النقدية التي لا تخلو من نقد لاذع في أحيـان كثـيرة لأنّه لا يجاملها كما يفعل كثير من الحضور، ليحظوا بوقفة مطوّلة معها.

- **اليوم أخذتك من المرضانين يا ترى رح يسـامحوني، اشـتقت لـك يـا أبو جاسم الطبقة.**
- **نسيتِ تقولين يا شاوي.!؟**
- **ما رح أنساها، الكلمة اللي خلتنا نتشـاجر ونصـير بعـدها أصـدقاء، شلون بـدي أنسـاها،يا... يـا مهبـول.؟! كـل طـلاب الجامعـة كـانوا مسمينك أبو جاسم الطبقة يالله بنحكي بعدين فـوت اتفـرج بـدي نقد لاذع أنا رايحه استقبل بقية الضيوف، جاييتك.**

سارت بضع خطوات ثم عادت مسرعة غمزت له بعينها اليمين:

- **بالمناسبة صديقتي الصحفية، شـو كـان اسـمها، رفـاد، روعـة، آآآه تذكرت سامية، موجودة بالمعرض!!.**

تحركت حدقتاه في كل الجهات باحثا عنها، دون أن يظفر بها رقّـص حاجبيه وهو يبتسم لمي ممتناً لهذا البشرى، تقدّم مـن اللوحـة الأولى لم يتأملها كعادتـه، انتقـل عـلى عجالـة إلى اللوحـة الثانيـة، باغتتـه لحظـة شرود، عاد فيها إلى أيام الدراسة الجامعية حيث تشـاجر معهـا في حفـل تعارف الطلبة في السنة الأولى حين كانا في عرافـة حفـل للجامعـة وكـان يتحدث إلى بقيـة زملائـه في الكـواليس بلهجتـه الشـاوية المولـع بهـا إلى درجة الهيام فتناهى إلى سمعه صوتها تحدث زميلة(منين جـايبين هـادا الشاوي.؟!!) ثارت ثائرته يومها كاد يفسد الحفل لولا أنها اعتذرت منـه،

بعد أيام قام بنفسه بزيارتها في قسم اللغة العربية، ليعتذر منها بعد أن أكد له زملاؤه أنه كان قاسياً معها وأنّ ردّة فعله جاءت جارحة، اتبعها بزيارة لها في المدينة الجامعية وتوالت زيارته لتوطد صداقتهما العميقة، دون أن يتنبه لجمالها الذي جعل بعض أصحابه يغبطونه، بل يحسدونه عليها، يصطنعون أحاديث معه، عندما يسيران معاً، ليتلصصوا عليها، يسترقون النظر إلى قوامها الممشوق، الآسر، ساقيها الأدرمين، صدرها النّاهد كرمانتين عاسيتين.

لم تعد مي تتحرج بمناداته بهذا النعت، منذ أن حدثها عن أصل التسمية التي تعيد أهلها إلى أصولهم العربية الموغلة في التاريخ حين خرجوا من اليمن بعد انهيار سد مأرب الثاني، وأن لهجتهم أقرب اللهجات للعربية الفصيحة وأنهم أصحاب تراث فني ثر، لكن أهلها صاروا يرونها مثلبة، في حين يراها هو منقبة تستحق الوقوف عندها فعزم على جمع ما استطاع من أمثال، وأشعار وحكايات.

وجد نفسه في منتصف المعرض، دون أن يدري، خشي أن تعود، لتسأله عن رأيه، ونقده الذي تتعطش لسماعه. ماذا سيقول لها!! وهو لم يتفرّس بأي لوحة. كان فكره مشغولاً، بالبحث عن فردوسه البهي. تسترق عيناه النظر يمنة ويسرة، يستطلع المكان، والوجوه كطفل فقد أمه وسط الزّحام، فقد صبره، وجسارته. كان مضطرباً لدرجة كبيرة خشية ألا يراها، فلا يروي عطش روحه الصّادية إلى عينيها السّوداويين الواسعتين، ابتسامتها الملائكية، عندما يفترّ ثغرها الصغير عن ضحكة تكتمها، أو تداريها، رنة ضحكتها الخلابة، قوامها النحيل.

انتقل للوحة جديدة، لم يكمل قراءة معالم سابقتها، اختلطت في عينيه، ورأسه الأشياء، تكربست الألوان، والظلال في مخيلته، تراكبت اللوحات فوق بعضها، لتنتج لوحة جديدة، ولدت في رأسه. تصعّد شعور القلق في أعماقه، شلّ تفكيره المأخوذ أصلاً بتوق. كان يتوق لإشعال لفافة تبغ

وينفث دخانها دوائر، لكنّه مانع رغبتـه، كـيلا يحـرج مـي. دار نصـف دورة ليجعل اللوحات التي كانت أمامه خلف ظهره، تسمّر في مكانه لابثـاً، خفـق قلبه بسرعة، كاد قلبه أن يخرج من صدره، عنـدما أبصرهـا تقـف في زاويـة غير بعيدة، همَّ يجري نحوها، ليأخذها خارج هذا العـالم، ويجـري بهـا عـلى ضفاف البحيرة بعيداً عن العيـون، لكنـه توقـف حـين رآهـا برفقـة شـاب لا يدري أين رآه، لكنه كـان يجـزم بأنّـه يعرفـه. اعـتصر ذاكرتـه، وهـو يحـاول استرجاع الذكريات لم يفلح، أدرك أنّها رأته، وهي تحادث ذلك الشّاب بـدت غير مرتاحة وهي تـوزع نظرهـا بيـنهما. ظهـرت معـالم القلـق عـلى وجههـا بجلاء، لم تخدعه الابتسـامة المصـطنعة عـلى وجههـا، وهـي تحـاول مـداراة ارتباكها، لوهلة كاد ينقض عليهما، ليفض هذا اللقـاء الـذي رأى فيـه تعـذيباً له ولها. ربت عقلُه قلبه من الإقدام منعه الشّك والرّيبة من أن يكون قريبـاً أو أخـاً أو... تراكمـت الظنـون برأسـه، لم يحسـمها بقـرار، أو إجابـة شـافية، استدار نحو اللوحات، غاب عقله، وفكره كلية عنها، ربتـت مـي فجـأة عـلى كتفه، جفل جفلة خفيفة. سحبته من يده برفق نحو لوحة مجاورة، أشـارت بيدها إلى اللوحة قائلة:

– **بصراحـة كلهـم أولادي-عـلى رأي أشـقائنا المصريـين- بـس هـي اللوحة، دلولتي عطيني رأيك، راجعتلك.**

عندما نظـر في عينيهـا ابتسـم ابتسـامة مريـرة لا تـنمّ عـن شيء، لم يستعذب غمزها كما كان دوماً، أعاد نظـره إلى اللوحـة لم يفلـح بقـراءة شيء، استدار حيث كانت توق، لم يجدها، تلفت في أرجاء المكان، كانـت قد اختفت تماماً، واختفـى معهـا الشّـاب أيضـا. شـعر بنفسـه في خضـم دوامة تتخبطه، وموج يلطّه في كل الجهات، فيفقـد قدرتـه عـلى الرؤيـة والتفكير. انسل هارباً، وأكثر ما كان يشـغله وجـه ذلـك الشّـاب الأسـمر مربوع القامة، ممتلئ البدن.

❁ ❁ ❁

بدأ طوق العزلة المفروض حول جاسم وعائشة ينكسر شيئا فشيئاً، وبات أيمن يلازم مكتبهما طيلة وقت الدّوام، في البداية حاول أيمن أن يثبت للآخرين أنه لا يهاب التواصل معهما على الرغم من أن الجهات الأمنية تعرف كل سكناتهما وحركاتهما، زوارهما وأصدقائهما فأحب أن يثبت للآخرين أنه غير هياب لذلك وأنه يتحدى خوف الآخرين ثمّ اكتشف في سريرته توقاً دائماً لمجالستها، عزاه في بداية الأمر لشغفه لسماع أخبار الثورة والثوار كما اكتشف ولعه بحديثها نفسه في أي مجال، طريقتها في الكلام، أسلوبها الساخر، حركة شفتيها البارزتين كشقي فاكهة يانعة، صدرها الناهد المتكور، جسمها الفارع، العبل، وكم كان يسعد يوم يلقاها بغياب جاسم الذي يخرج أحيانا ليتنسم الهواء عندما يشعر بتوعك، وضكة صدر بسبب تضيق شرايينه، كان يحرص على الحضور لمواكبة أخبار الثورة التي يجدها عندها دائماً. فالثورة هاجسها اليومي منذ بداية دوامها إلى انصرافها، وفي البيت تتابع نشاطها على صفحات الانترنت بجرأة، لم يكن جاسم قد تنبه لتعلق أيمن ولم تخبره بشكوكها ليقينها أنّ الانشغال بالثورة أولى من تلك الأحداث العابرة، فظلت تتصرف على سجيتها مع الجميع، ولم تكن تتقصد الإتيان على ذكر عبد الرحمن لتشعل غيرته كما توهم، بل كانت تواقة للتعرف إليه منذ أن قدمت إلى المصلحة، وقد شعرت أنّ أيمن يحاول العدول عن ذكره غيرة، فصارت تلتف على الموضوع بذكاء لم يدركه إلا بعد أيام:

- **شني أخبار إيناس.؟!**
- **تنهد أيمن بحسرة توقف عن لف سيجارته وقال:**
- **نقلها أبوها من المصلحة من يوم انكشفت علاقتها بعبد الرحمن، لمن راح يطلب ايدها، الحقير رد عليه بتكبر وتعالي "**

أنت ما بتناسبنا أبدا اضربت يومين عن الطعام، وظلت تتصل بعبد الرحمن لأسبوع بس ع السريع استسلمت، وخضعت لجبروت الأهل.

- **بالمناسبة عندك علوم عن عبد الرحمن.؟!**

عاد إلى درج سيجارته، بللها بلعابه قضم نتفاً من ورقة اللف، وبصقها بعيداً، أحكم لفها، صمت لبرهة ثم قال بصوت خفيض:

- **الأخبار اللي سمعتها ما تسر عدو، ولا صديق بعض الناس يقولون عبد الرحمن توفي تحت التعذيب بفرع الأمن العسكري.**



دخل المنزل واجما كئيباً لم ينتبه لأول وهلة لخلوّه من ساكنيه، دلف إلى المطبخ، وضع الإبريق على النار، كان بشوق عارم لاحتساء كوب شاي ساخن وعندما قفل عائداً إلى الصالون لفتت انتباهه وُريقة لصقت على المرآة كتب عليها:

- **أنا عند أهلي طلقني وريحني.**

مزق الورقة بغضب، استلقى على الأريكة الكبيرة، أجهش ببكاء مرير، أراد أن يعتصر ما في عينيه من بقية دموع ليريح رأسه، لكن ذلك كان بعيد المنال، تناهى إلى سمعه صوت بقبقة الماء فسارع إليه، سكب كوب شاي أشعل لفافة تبغ فرأى وجه توق وسط الدخان باسماً كأنّه سحابة غيم بعيد، رنّ هاتفه الجوال في جيبه، لم يحرك ساكناً، كان موقناً أنّه طلب من أحد المرضى، أو سؤال عن دواء لم يكن في حالة تسمح له بتقديم العون لأحد، كما سوّغ لنفسه. استمر رنين الجوال لثلاث مرّات متتالية دون أن يأتي بحركة. نهض متثاقلاً أخذ الهاتف الأرضي طلب رقم

بيت أهل زوجته لكن أحداً لم يجب، عاد إلى الأريكة ثانية، دلس يده في جيبه، أخرج هاتفه المحمول ليطلبها على هاتفها المحول لعلها تجيبه وهو يعرف أنها لن تجيب، لكنه أراد المحاولة فتح قفل هاتفه، قرأ على الشاشة ثلاث مكالمات لم يتم الردّ عليها ضغط زرّ عرض المكالمات، صعق عندما علم أنّها المتصلة منذ قليل. انتفض جالسا أعاد طلب الاتصال بها لكنها لم تجب. رمع خوفاً عندما رنّ الهاتف الأرضي هرع إليه رفع السماعة آملا أن تكون توق على الخط، فوجئ بصوت مي غضبى معاتبة على انصرافه المبكر، اعتذر بشدة، وعدها بالعودة ثانية في ظروف أحسن، لم يطل الحديث معها كعادته، كانت إجاباته مقتضبة وقصيرة، أعاد السماعة واستلقى علىَ الأريكة غير منتظر غفوة قريبة فقد كان يعرف أن ليلته ستكون طويلة.

شعر بكآبة تجلل روحه، وسأم يطبق على صدره. ذرع البيت جيئة وذهاباً. توقف فجأة، أخذ مفاتيح سيارته، خرج على عجل يجوب الطرقات. كان الشارع خالياً من المارة تقريباً، اجتاز الطريق الرئيسي انعطف نحو المساكن العمالية حيث تسكن وقف على مقربة من بيتها كانت الشرفة مطفأة، والأضواء خافتة، ما خلا غرفة وحيدة حدّس أنها غرفتها وقال لنفسه لابد أنها تقرأ آخر رواية أعطاها لها.

أجفلته نقرات خفيفة على زجاج السيارة التفت فتبدى له شبح إنسان تلفه العتمة، يقف بمحاذاة باب سيارته وقد انحنى ينظر إليه فارتعدت أوصاله خوفاً، وهلعاً. دارت في ذهنه الوسواس من أن يكون والدها، أو أحد أخوتها، قد شاهده يراقب البيت، تزاحمت في رأسه الظنون، جف حلقه، تيبس لسانه في فمه حتى يده فقدت مسارها نحو مقبض الباب ليفتحه.



كان فتح الباب يثير هلعاً ورعباً لدى الجميع، فغالبا ما تعقبه جلسات تعذيب جهنمية، لكن هذا الشعور بدأ يتلاشى ليتحول من الخوف إلى الشفقة على الشباب الجدد الذين يزجّ بهم كلّ يوم، وكان عبد الرحمن أكثر المحتفين بهم عندما عرف أنّ منهم شباباً من طوائف، وملل أخرى وقد فسر لحميد ذلك قائلا:

- **هذا ينفي عن الثورة صبغة الطائفية، ولو شلون فاتتك؟؟.**

شعر بألفة، تربطه بكلّ أقرانه الذي غيّبوا وراء الشّمس في هذه الزّنزانة القصيّة المغيّبة تحت الأرض. كان يعود من جلسات التحقيق، والتعذيب بشوق كبير، يأخذهم بالأحضان كأنّما قد آب من سفر طويل، حتى باتت تلك عادة عند الجميع، عندما ينادى على معتقل، يقف خلف الباب، يلوح لزملائه مودعاً وإذا عاد أخذوه بالأحضان فرحين بعودته حياً.

اقنع الجميع بوجهة نظره بضرورة إنكار التهم الموجهة إليهم، سواء صحّت، أو لم تصح، لأنّ خروجهم أجدى، وأنفع للحراك الثوري. وافقه الجميع رغبته عن اقتناع على رغم ممانعة بعضهم لذلك تحت ذريعة أنّ ذلك سيحملهم عاراً كبيراً إذا خرجوا، لاسيما حميد لكنه بعد جدال طويل انصاع على مضض.

اتفقوا على أهمية التواصل فيما بينهم للتنسيق، والعمل- في حال أطلق سراحهم- وكانت الخطوة الأولى حفظ أرقام الهواتف الأرضية والمحمولة، وكان الشيخ عبود يعيد عليهم الأرقام بالتتالي للتأكد من حفظهم لها لأنّه أول من حفظ الأرقام جميعاً، وهو الوحيد الذي لا يملك هاتفاً محمولاً. كانت الساعة قد تجاوزت العاشرة صباحاً، كما قدّر الجميع عندما حدثت جلبة عارمة خلف الباب، تلاه صوت العنصر يغنغن زمجراً:

- **عبود الشلاش!! حميد العوّاد!!. عبد الرحمن الحمود الدخيل!!.**
- **لبره يا أولاد الكلب، الله يلعن الساعة اللي شفنا وجهكن فيها.**

وقف الثلاثة متأهبين في أماكنهم، اقتاد حميد الشيخ من يده، وقد جعلوا ظهورهم للباب مستعدين لعصب عيونهم، وتقييد أيديهم في اللحظة التي يتفتح فيها الباب ليتجنبوا الصفع والسّباب الذي ينالهم سواء فعلوا أو لا.

ولج عنصران جديدان لم يرهما أحد من قبل عصبوا عيونهم عند ذلك نطق حميد:

- **الشيخ عبود كفيف.**

فالتفت إليه العنصر وصرخ بحدة:

- **كول خرا مو شغلك.**

فعلق عبود ساخراً:

- **ديروم بالكم ع القناصة شباب!!.**
- **وانت كمان كول خرا.**

اقتادوهم في الممر الطويل في جهة مخالفة لجهة التحقيق، أدركوا ذلك، عندما سمعوا صوت باب حديدي كبير يفتح ويصرّ بشدة، فأخذتهم رجفة من القادم المجهول.

حين رفعت العصابات عن أعينهم وجدوا أنفسهم في غرفة صغيرة ضيقة تراكمت فيها أضابير وأوراق وتقارير كثيرة ورأوا شاباً في الثلاثين برتبة مساعد أول يقبع خلف طاولة، وقد وضع رجله فوق الطاولة وقال بتعال وجلافة:

- **ما كان بودنا نتفارق بس الحقيقة النظام رحيم مع انكن ابتساهلوا الرحمة والله لو كان الأمر بايدي لأخليكن تتمنوا الموت وما تشوفوه بس بالله، السيد الرئيس صلى الله عليه**

وسلم، رؤوف رحيم. بدكن إسقاط النظام ما هيك.؟! ولك بيسقط الرب تبعكن، والنظام ابيسقط، وروحوا قولوا هالكلام لربكن. كلّ واحد منكن يجي ياخد غراضو، شو كان معك مصاري يا سني الكلب.؟!

عرف الشيخ عبود أنّه يحاول بلصه وابتزازه، فتجاوز النصف، ليحصل على النصف الآخر:

- **ألفين ليرة.**

نهض المساعد من خلف مكتبه الحديدي، تقدم نحو عبود الذي لم يشعر به، ركله بين رجليه فأصاب خصيتيه، اعتصرته نوبة ألم حاد، وجع تغلغل إلى أعماق الخلايا، فاضت السيلات العصبية بأحاسيس الوجع، انحبست صرخته بداخله من فرط الوجع، انحنى حتى كاد يلامس الأرض. التفت إلى الآخرين اللذين تأثرا بما حلّ بالشيخ دون أن يقدرا على مدّ يد العون له، كان عبد الرحمن مطمئناً إلى أن ذلك لن يحدث معه لأنّه لم يكن يحمل مالاً عند اعتقاله أما حميد فقد تنازل عن مبلغ كبير مما كان معه، ليحصل على جزء يسير.

- **يالله انقلعوا من وجهي، يا عسكري خود هالحيوانات ع السيارة للترحيل.**



فتح محمد باب السيارة، ترجّل منها ليجد نفسه قبالة جاسم، تنفس الصعداء. انزاح همٌّ كبير عن كاهله، تلاشت مخاوفه، ووساوسه التي تخيلها، تعانقا عناقاً طويلاً. استقلا السّيارة ثانية يجوبان الطرقات، وهو يتخوف في أي لحظة من سؤال جاسم له عمّا كان يفعله في تلك المنطقة، لم يجد جواباً مقنعاً، يزيل الشّك عن قلبه، ولم يحاول أن يسأل عن سبب تواجد جاسم

نفسه في تلك المنطقة، لكنه توقع أن يكون خارجاً من بيت أحد الأصدقاء. ظلّ محمد يلاحقه بأسئلة تتناول الوضع الراهن، والإحداث يختلق موضوعاً بعد موضوع، قرابة السّاعة فلما طلب منه جاسم أن يوصله إلى البيت بعد أن شعر بالنّعاس، متذرعاً بعدم قدرته على الاستمرار في السهر أكثر، بسبب دوامه الصباحي في المصلحة، أيقن أنه قد نسي الأمر تماماً، لم يكن يعرف أنّ جاسم كان يضرب على وجهه في الطرقات، بسبب الكآبة التي اجتاحته منذ أيام بسبب ما حدث، ويحدث وشعوره بالعجز، والتقصير تجاه وطنه وأبنائه.

ترجّل جاسم على مقربة من الزقاق المفضي إلى بيته لوّح له بيده واختفى. سار محمد بهدوء ورويّة لم يكن أمامه من بدٍّ سوى العودة إلى البيت ثانية، أنار الأضواء، أشعل التلفاز صدمته مناظر القتل، والإحراق وأخبار الاغتصاب المتوالية كلّ يوم، هصرت قلبه حالة اللاجئين الذي أجبروا على ترك بيوتهم، وديارهم ووطنهم إلى البلاد المجاورة، ليعيشوا هناك لاجئين، يتصدق عليهم الناس بقصمة خبز، وفتات طعام وأغطية، تذكر ما قاله جاسم عن عملية التهجير المدروسة، لبعض المناطق بغية تغيير ديموغرافيا المنطقة، ليحلّ بدل سكانها أناس جدد من طائفة النظام. تذكر العائلات الكثيرة التي بدأت بالنزوح بالعشرات إلى مدينته، وهي البعيدة عن ساحة الأحداث، فكيف يكون الحال في المدن القريبة من المناطق الساخنة لابد أن آلاف الأسر قد تركت بيوتها وممتلكاتها التي أفنت العمر في بنائها، وجمعها قد ذهبت مع الريح ليستقر بها أناس آخرون ينعمون بها، إذا سلمت من النهب، والسرقة والتخريب من قبل الشبيحة وعناصر الجيش. الناس هربوا لينجوا بأنفسهم، وأعراضهم من آلة وحشية لا ترحم، ولا تعرف وجداناً أو ضميراً، وقد عرفوا كيف يجعلون الناس تنزح تاركة وراءها شقاء العمر بالقتل فلما صمد الكثيرون، وجدوا الاغتصاب، والتنكيل بالنساء، والأطفال أسرع طريقة للوصول إلى مآربهم الدنيئة.

شعر بكآبة، أطفأ الجهاز، وأعاد تشغيله مرّات كلما دهمه النعاس ثمّ غادره بعد وسنة طفيفة، تحسس فراش أسعد، شعر بحرقة في صدره، ولوعة في روحه، تمنّى لو كان قربه ليلثم خدّه بقبلات حرّى تطفئ نار شوقه إليه. غطى وجهه بالدثار، حاول النوم، جافاه الوسن، نهض من الفراش خرج إلى الشرفة ليستنشق الهواء، لكن الريح كانت ساكرة، عاد إلى تلفازه ثانية، يتابع بعينيه فقط دون أن يعي ما يحدث، وما يشاهد.

في تمام التاسعة والنصف استيقظ على رنين هاتفه المحمول تناول الجهاز بفتور وهو يعتقد أنّ الممرضة تحاول أخباره بتأخره عن موعد عمله في العيادة. نظر إلى الشاشة لم يصدق ما رأى كان اسم توق ورقمها يتراقص أمام عينيه على الشاشة ردّ بصوت أجش مرحبا فقالت:

- **محمد أرجوك، حاول ما تتصل فيني ها اليومين، بعدين بحكيلك.**

❖ ❖ ❖

أحسّ جاسم بتشنج شديد، تقبض جلده، أحجم عن إشعال لفافة تبغ جديدة حين دخل المستخدم يطلبه للحضور لمكتب المدير، وعندما ألحّ عليه بالسؤال أخبره أنّ مفرزة الأمن العسكري يطلبونه للذهاب هناك ساعة، ثمّ يعود لإجراءات أمنية. أعطى هاتفه المحمول لعائشة، وقال بصوت متهدج:

- **إذا ما رجعت بعد ساعة تعرفين الباقي.**

فتح درج المكتب، أخذ علبة سجائر إضافية، دلسها بجيبه، غادر مسرعاً نحو مكتب رئيس المصلحة الذي أصرّ على ذهابه مسرعاً. استقل سيارة أجرة عابرة دخل بوابة القسم فلقي عنصراً ضخم البنية، متمترساً خلف دشم وأكياس رمل وحواجز وقد أردف على كتفه بندقية روسية ولفّ جسده بمِجْند طلقات كثيرة فقال جاسم لنفسه:

- **جماعة الممانعة والمقاومة، مجهزين لحرب طويلة على ما يبدو.**

أشار له العنصر بالدخول إلى غرفة صغيرة صعد الدرج الخلفي الذي بدا له طويلا وصعبا كأنه يرتقى نحو السماء مودعا الأرض كانت الغرفة مظلمة تعلوها نوافذ صغيرة، قريبة من السقف، تتدلى منها سلاسل حديدية ملطخة بدماء كثيرة، دخل مساعد غليظ المعالم متجهم الوجه وهو يشابك يديه خلف ظهره، صمت للحظة ثم أمطره بوابل من التهم والسباب وهو يسرد له تفاصيل تحركاته وأقواله التي وصلت بحرفية مطلقة فلم يحاول جاسم الإنكار تحدث بهدوء جم موافقاً على كل ما وجه إليه:

- **سمعت عم تقدم تبرعات لأسر اللاجئين صحي هالحكي.؟!**
- **مزبوط. ليش هاي جريمة ؟!**
- **خراس، طبعاً جريمة ناس كلاب مندسين، مخربين كان لازم يموتوا، سمعت كمان إنك عم تدعو للحلّ العسكري لإسقاط النظام يعني المظاهرات ما عادت تعبي راسك.؟؟!!. يعني مفكر الشغلة مجرد مزح، وبطولات. ولك نحنا عنا مساجين بتهمة الإرهاب بس لانن عاكسوا بنت مساعد بالقسم أو جار زعج عنصر عنا، لبّسناه تهمة مؤبدة فشلون اذا كان بدو يسقط النظام.؟!! والله وقعتك سودة يا جاسم !!**

ثم صرخ بأعلى صوته فدخل عنصر يلهث، وعندما تسلّم العنصر منه جميع أغراضه ودونها عنده، عرف أن الترحيل إلى الفرع قد بات وشيكاً، أُدخل غرفة صغيرة، معصوب العينين مكبّل اليدين، أبقي واقفاً على قدميه ست ساعات، لم يسمح له بالجلوس فقد القدرة على التحمل، تكاثرت هالات حمراء وسوداء تكبر تصغر تومض تتوهج في الفضاء الأسود الذي يتشكل بين عينيه والعصابة، تعالى لهاثه، تصبب عرقاً، تشنجت قدماه، وهنت قواه، وتلاشت فسقط سقوطاً مدوياً على أرض الزّنزانة الإسمنتية.



انتبذت عائشة في المكتب، بعد تقريع رئيس المصلحة لها وحمله عليها بشدة، لتأخرها لأول مرّة، منذ أن نقلت إليه، لم يزعجها لومه، وتوبيخه لولا أنّها كانت تعرف أنّها الوحيدة التي يستطيع أن يفعل ذلك معها، فغير مرّة كانت تجلس في مكتب مراقب الدوام، فتحضر سماح متأخرة وسنى منفوخة العينين، تمرّ وباب مكتبه مفتوح، تلقي عليه التحية، فلا يعرج على الموضوع البتة، متجاهلاً تأخرها، تحذو حذوها ناهدة وبشرى التي عينت بتدخل من قبل عنصر أمن، فيحييها قبل أن تلقي عليه التحية، بلغ حنقها ذروته عندما شمّت رائحة الخمر، والدخان الفاخر تملأ المكان. نظرته الشبقية التي افترست رجليها اللتين يضكهما بنطال جينز ضيق، عندما تذكرت ذلك، كادت تنهض عائدة إليه، لتصبّ جام غضبها في وجهه، لولا أنّ أيمن طرق الباب طرقات خفيفة، ودخل وهو يحمل ركوة القهوة، صبّ لها فنجاناً جلس متنهداً، محاولا مواساتها، أطرق مهموماً عاجزاً عن الإتيان بأمر، فكر بالعودة إلى مكتب رئيس المصلحة ليواجهه، لكنه أحجم وقد أيقن أنَّ الاتهام بالطائفية أول ما سيواجه به من قبل سلام، وسماح دلق الفنجان في فمه دفعة واحدة، وقال وهو يحك أرنبة أنفه:

- **بسيطة، الموضوع كلو مجرد زوبعة بفنجان.**
- **يا أخي شي يجنن واحد نسونجي، سكير، ولص، مساوي حالو نظامي علينا، وهو كومة فساد.!!.**

صمتت عائشة مبلهة وهي لا تصدق ما ترى، نهضت محدقة تكذب ما ترى عيناها، كانت تعرف أنّها لا تستطيع زيارة المصلحة لوجود جاسم فيها، فخمنت أن شيئاً بالغ الخطورة قد وقع دفعها للقدوم، ثارت في نفسها القلاقل والظنون، حتى إنها نسيت أن تردّ تحية مي التي ظلت يدها معلقة في الهواء لبرهة فقالت عائشة باستغراب:

- **خير، صار شي لا سمح الله.؟!!.**

❁ ❁ ❁

زُجّوا في سيارة لم يتبينوا معالمها، يشوب نفوسهم قلق من قادم مجهول وخوف من مصير في عالم يتخبط بلا هوادة، وحزن على ما كان، حالة من صراع بين حزن وخوف وقلق انقبضت لها صدورهم كأن القلوب تلوى بين قبضتي ملزمة تشتد وتهصر كلما أوغلت السيارة بالسير قدما نحو مجهول يرهب أو أمل مرتجى، لا تهون عليهم وطأة مآسيهم سوى دعابات الشيخ عبود الذي لا يفارق سخريته ودماثته في أحلك الظروف وأقساها:

- **بس لو ما چانت العصابة فوق عيوني، چان عرفت شلون أهرب.**

صرخ به أحد العناصر المرافقين:

- **عبود سد بوزك أحسن ما أقوم كسّر راسك.**

صمت الشيخ عبود على مضض خشية أن تنهال الهراوات على رأسه، واضطر حميد وعبد الرحمن إلى التغتغة[٧٤] رهبة من حرب غير متكافئة بين رؤوسهم والهراوات العمياء. رجرجة السيارة، والعصابات والصمت الإجباري كلّ ذلك كان عذاباً آخر يضاف إلى عذابات الانتظار التي طالت حتى توقفت السيارة فجأة، ترجّل العناصر، أيقنوا أنّ الرّحلة قد حطت بهم في فرع جديد، وبخبرتهم السابقة، وما سمعوه من سابقيهم من السجناء، فإنّ هذا الإجراء يفضي إلى احتمالين، إما أن يرحلوا إلى العاصمة إذا تبين أنهم مطلوبون لفروع أخرى، وإما أن يعادوا إلى الرقة ليتم تسليمهم عبر ترحيلات كثيرة تمرّ بكلّ الفروع ليعادوا إلى السجن المركزي بالطبقة، وهذا الهاجس أثار فيهم فرحة وسروراً لأنّه يعني -وإن طالت الإجراءات- إفراجاً لابدّ منه بعد طول معاناة.

- **الكل ينزل بسرعة.**

---

[٧٤] التغتغة: إخفاء الضحك وكبته.

هبطوا جميعاً يجرجرون قيودهم متخبطين تحت عمى عصاباتهم، انهالت عليهم هراوات كثيرة بالضرب ليسرعوا. دخلوا وهم لا يعرفون المضيف الجديد، إلا عندما صاروا داخل الفرع، نزعت عصاباتهم وحلت قيودهم، بدت وجوه العناصر الجديدة أكثر قسوة ورعباً، وهم يرتدون البدلات العسكرية، وعلى أكتافهم رتب حمراء بلون الدم.

كان الاستقبال كسابقيه صفعاً، وشتماً، وتّعرية، تمت على جناح السرعة، فأي تأخير قد يجلب ويلات كبيرة على الجميع، وقف الجميع حفاة عراة، طأطأ عبد الرحمن فرأى عضوه قد اقرنفط وغار من الخوف والخجل، استرق النظر إلى الشيخ الذي كان أقلهم خجلاً فمال إلى حميد هامساً:

- **دحق، صاحبك مِسْلِح**[٧٥]

فقال حميد بصوت خفيض:

- **كل هذا وانت خايف!.؟، طيب شلون لو انك مروق، أو شايف شوفة.**

فقهقه الشيخ عبود وقال:

- **الزنغيل**[٧٦] **يقولولو**[٧٧] **مبارك، والفقير يقولولو منين لك**[٧٨] **.؟!، ناس تحسد الأقرع على شعر حواجبو.**

استدار الرقيب محدقاً بهم متجهم الوجه جاحظ العينين، أشار لعناصر خلفهم فدفعوهم في ظهورهم، وهم يتأبطون ثيابهم، أمسك الرقيب الشيخ عبود من عضده فتوقف، حرّك رأسه باتجاه الزّنزانة فانصاع العناصر يقودون عبد الرحمن وحميد، زّجوهما في زنزانة

---

[٧٥] مسلح كلمة عامية يكنى بها عن ضخامة العضو الذكري.
[٧٦] الزنغيل: الغني عامية متداولة بمعظم اللهجات السورية
[٧٧] يقولولو: يقولون له.
[٧٨] منين لك.؟! من أين لك هذا.؟!

صغيرة، اقتاد الشيخ إلى مكتبه أوقف عارياً، دار حوله وهو ينظر إلى قامته الكبيرة، شعر صدره الأشيب النابت كحراب فوق بشرته السمراء، اقترب أمعن ينظر بعينيه البيضاوين، أنفه الكبير، شفتيه السمراوين الغليظتين، وضع يده على كاهله ضغط على كتفه ليجلس على مقعد خشبي، وقف فوق رأسه وقال هامساً :

- **عنا بعض المساجين من الإخوان إذا بتساعدنا لنذلهن، بنولك جانب من العفو والمعاملة الكيسة.**

وقف عبود وقد انتفخت أوداجه كأن عقارب لسعت وجهه وقال:

- **معاذ الله أن أهزّ عرش الرّحمن يا سيدي.**

دار الرقيب حوله وحين أصبح قبالته، صفعه بقوة على وجهه، فارتطم رأسه بالطاولة، نادى على العنصر الذي كان يقف خلف الباب ليجره إلى الزنزانة فاستقبله عبد الرحمن وحميد بشوق وكأنّه جاء بعد غيبة دهر.

لم يدم المقام بهم إلا ساعات قليلة، أعيد ترحيلهم بعدها بمثل ما استقبلوا به في سيارة عسكرية هرئة إلى حيث لا يعلمون، دبّ الرّعب في قلوبهم، الترحيل إلى فرع فلسطين يعني الموت المحتم الذي يغدو أمنية، الفرع الذي يثير اسمه رعباً في قلوب الجبابرة، لكثرة ما سمعوا عن حكايات التعذيب الجهنمية، التي تجري تحت أقبيته، طرائق لم يسمع بها أحد، ولم تخطر على قلب بشر.

❖ ❖ ❖

أخذت حمام ماء دافئ على عجل، خرجت من الحمام عارية دون أن تغلق صنوبر الماء، اقتربت من مرآتها الكبيرة وقفت أمامها استعرضت جسدها بنظرة فاحصة من رأسها إلى أخمص قدميها، قبضت

حلمتيها برؤوس أصابعها، سحبت ثدييها إلى الأمام رفعتهما إلى الأعلى وهي تنظر إليها في المرآة تركتهما فجأة فتدليا متطرطبين، انزلقت يداها نحو بطنها المترهل تحسست بسبابتها سرتها الصغيرة التي كانت تكره دقتها وصغرها، انتبهت للزغب الكثيف والشعر المتروك منذ أمد حاجباً جمال بشرتها البيضاء الناصعة، ذرفت دموعها السجام بغزارة وهي تتفحص جسدها الذي بات يعذبها ويقلقها، ولم تنفع كل تطمينات محمد لها عندما بثته شكواها ذات يوم فنصحها أن تحب جسدها كما هو، ليغدو كما تريد. تفرست بطنها المتهدل فشعرت بالتقزز والاشمئزاز منه، أفرغت صدرها وبطنها من الهواء سحبته للداخل، فبدت ضامرة ممشوقة كسابق عهدها قبل التقرير المشؤوم الذي جعلها تهمل نفسها منذ أن عرفت أن لا نصيب لرجل بهذا الجسد المثير الذي بقي ساحراً، وإن غادره كثير من جماله.

كان انشغالها بتقاطيع جسدها وما آل إليه همّ لا يفارقها ولكنها غالت به لتهرب من التفكير بزيارتها المفاجئة لعائشة لأنها استشعرت في نظراتها أسئلة كثيرة، ارتباك عائشة وصمتها ونظراتها الشذراء أكدت لها أنها اكتشفت خبيئة نفسها، وما رمت إليه، في محاولة الانتقام من جاسم الذي هجرها، أرادت أن تصفعه بخبر التقرير الخاطئ، لتشفي غليلها منه إذا عرف أن هروبه لم يكن صحيحا ولا أخلاقيا البتة، تمنت انهياره واستجداءه لها لتسامحه، لكنها لم تجده، كانت موقنة أنّ عائشة لم تبلغه، حاولت أن تنفي لنفسها أنّها متشوقة لرؤيته أيضاً.



ولجت توق مكتب مدير العلاقات العامة على عجل، أومأ لها بيده، فجلست دون أن يترك لها الفرصة للتساؤل عن سبب استدعائه، أعطاها

ملفا يتضمن أسماء جميع الصحف المشترك بها طالبا إليها أن تعدّ دراسة تفصيلية عن مواقف الصحف من الأحداث، لإلغاء اشتراك الصحف الخارجية التي ساندت الثورة، أو التي وقفت على الحياد، حملت الملف لتعود لمكتبها، فأشار لها بالعودة، أعطاها بعض التحقيقات المأجورة التي أجريت مع المدير العام لتبيض صفحة المؤسسة التي كانت تعاني أزمة مالية خانقة. ثم أردف ذلك بكتاب فاخر الطباعة عن القائد وقال وهو يحك صدغه:

- **إذا وافقتِ بإمكاني تأمين ألفين نسخة مع تعميم اقتناء من قبل الدوائر وخلي شي واحد يرفض، بتطلعي بظرف كم يوم، بثروة والربح بالنص، شوفي زملائك صاروا فوق الريح.**

استأذنته بابتسامة مصطنعة وعادت لمكتبها استعرضت الملف، والتحقيقات على عجل، فأدهشتها الأرقام المرفقة كأجور نشر والتي تدفع لتلميع صورة المدير العام في الوقت الذي لا يجد المحاسبون السيولة الكافية لدفع الرّواتب والأجور والصيانة.

قفزت صورة محمد فجأة أمامها مستذكرة ما دار بينهما عن واقع المؤسسات، وما يدار عنها في الإعلام، والكتب التي تتناول القيادة الملهمة الحكيمة التي تضاهي الإلوهية بل تفوقها قدرة وحنكة، تصفحت الكتاب على عجل فهالتها العبارات والأوصاف المسرودة فيه ألقته جانباً، خرجت نحو حديقة المديرية التي حولها المدير إلى بستان للأشجار المثمرة والخضروات مستثمراً العمال كفلاحين بلا أجر للاستفادة من خبراتهم في الزراعة وتربية النحل، فرشت الصحيفة التي كانت بيدها فوق المقعد الإسمنتي وجلست عليها تراقب العمال المنشغلين بالحرث والزراعة بوجوههم النحاسية الكالحة التي لوحتها الشمس.

❁ ❁ ❁

عندما خفف السائق سرعة السّيّارة بعد قرابة ساعتين من السفر المضني، تنفس عبد الرحمن الصعداء، فقد تداعت إلى أذنيه أصوات المارة، والباعة التي يألفها، عرف أنّ الرّحلة قد انتهت به إلى الرّقة.

تسلمهم فرع الشرطة العسكرية، ليزجّ بهم من جديد في زنزانة أشبه بسابقتها، وبمراسم استقبال لا يحيد المضيف عنها تحت أي ظرف ولتبدأ بعدها رحلة تسفير جديدة انتهت بهم في فرع الأمن الجنائي الذي سلمهم بدوره للقصر العدلي ومنه أعيدوا إلى السجن المركزي راسفين[٧٩] بقيودهم بعد استجواب قصير من قبل القاضي الذي أمر بإحالتهم إلى سجن الطبقة المركزي.

تناهبتهم مشاعر شتى في تلك اللحظة التي أدخلوا فيها، كان البناء كبيراً مترامي الأطراف، اجتازوا بوابة جديدة تفضي إلى ممر طويل، دهشوا وهم يرون السجناء يتجولون بحرية بين الزنزانات، والندوة وقد غبّ الفضاء بدخان سجائرهم، وحشيشهم الذي يصلهم بطرق متفق عليها بين ذويهم والعناصر المناوبة. استشعروا خيرا وباتوا يمنون أنفسهم بهامش صغير للتحرك، وتناول ما يشتهون من الطعام والمشروبات، كان عبد الرحمن تواقاً لتدخين سيجارة واحتساء فنجان قهوة حرم منهما منذ أمد بعيد، كاد ينفلت من السرب السائر نحو الندوة ليطلب ما يشتهي لكنه خشي فعل ذلك، لأنه يعرف أن سجناء الرأي لهم معاملة خاصة، وأنه لو كان لواطاً، أو حشاشاً لكان تعاملهم معه أفضل وألطف، سرعان ما خاب أملهم حين أدخلوا زنزانة مترامية الأطراف مرتفعة السقف، أطبق عليهم باب حديد تعلوه فتحة صغيرة في أعلاه لتربطهم بالعالم الخارجي، قبعوا في أماكنهم جامدين بخيبة أمل، منتظرين الفرصة التي يفتح فيها الباب ليسألهم عما يرغبون بتناوله، لكن انتظارهم طال لأكثر من ساعة ونصف فقدوا فيها الأمل تماماً.

---

[٧٩] الرسف: مشي المقيد المكبول.

ذرع حميد الغرفة جيئة وذهاباً، وهو يتأمل سلوع الجدران والنـزاز وذكريات من سبقوه ممن خطـوا أسـماءهم عـلى الجـدران بحفرهـا، أو بكتابتها بطرق مختلفـة، عنـدما فتحـت الكـوّة اقـترب مسرعـاً لم يـر أي وجه، ظنّ لوهلة أن العنصر قد فتحها للتهوية ومضى، فجأة ناداه صوت عريض من وراء البـاب، ركـض نحـوه تعـالى عـلى رؤوس أصـابع قدميـه لينظر من الكوة حيث ارتفعت يـد عـنصر قصـير القامـة، تنـاول الورقـة والقلم، أخبره أن يكتب فاتورة يطلب فيهـا مـا يشـاء فـردّ عليـه حميـد بطلب الخروج ليشري ما يشاء بنفسه:

- **ممنـوع الخـروج بـدك شي اطلـب، أو خلينـي امشي، الخـروج ممنوع للسجناء الإرهابيين.**

سلم الثلاثة بواقع الأمر وامتثلوا كتبوا ما يشتهون أعطـى حميـد الورقـة للعنصر مشفوعة بورقة نقدية كبيرة وقال وهو يلتفت إلى عبد الرحمن:

- **الخدمـة خمـس نجـوم للمجـرمين: اللـواطين، اللصـوص لأنّهـم يـدفعون مقابـل الخدمـة، ولأنّهـم أشرف، وأفضـل منـا بعـرف النظام.!!.**

ما إن تسلموا ما طلبوا، حتى انسدح عبد الرحمن عـلى ظهـره، أرّث سيجارة، احتسى بضع رشفات مـن القهـوة، أحـسّ بخـدر لذيـذ يمشي في عروقه، وكأنّ الحياة تدبّ فيه من جديد، خيّـل إليـه أنّ النكـوتين يسري في عروقه ويدبّ دبيباً كجـيش نمـل، يبعـث فيـه نشـوة عارمـة، انتهـت السيجارة على عجل لفرط ما رضـعها أشـعل ثانيـة، والتفـت إلى الشـيخ عبود قائلاً:

- **شيخ عبود أشوفك صالح.؟![٨٠] ما تريد تتن[٨١]؟!.**

---

[٨٠] الصالح: الساكت الممعن بالتفكير وفي الفصحى البعير الذي لا يرغو.
[٨١] تتن: كلمة دخيلة والتتن: التبغ.

صاح عبود صادحاً:

- **آني خرمان على كاسة چاي ثانية[٨٢] لدرجة إني جاعد أشوف الواحد اثنين يا رجل.**



أخرجت توق هاتفها المحمول من حقيبة يدها، وعندما رأت رقم إسماعيل أقفلت الخط في وجهه، وأكدت الرفض في محاولتيه اللاحقتين. ألقت الهاتف على المكتب، طلبت فنجان قهوة، للمرة الثالثة، أحضره المستخدم الذي بدا مرتبكاً وهو يخبرها أن شكري قد سأل عنها وأخبره أنه سيعود إليها بعد لقاء المدير.

حاولت ترتيب أفكارها، استجمعت هدوءها لتفكر بما تفعل، وما ستقول له بعد أن كثرت ملاحقته، وتلصصه عليها في كلّ مكان تذهب إليه، وهو يسير خلفها بسيارته الفارهة، يفتح نوافذ السيارة، يصدح صوت الموسيقى والأغاني الهابطة عالياً، لم تستطع أن تستلطفه، رغم محاولاته اليائسة بالتفكه، واصطناع خفة الدم، لاستمالتها، كانت تقرأ في عينيه الذئبيتين مكراً وخساسة، نقر الباب برؤوس أصابعه وهو يمد رأسه باسماً:

- **مرحبا.**

نطقها بميوعة كمخنث مرققاً الرّاء كثيراً، تجاهلت تحيته، تقدم من مكتبها فارداً يده، التي تجاهلتها أيضا فوضع يده على صدره وهو يقول مقهقهاً:

- **اعذريني متوضي، فكرتي بالموضوع!!؟.**

---

[٨٢] چاي: شاي.

- **هداك اليوم بصالة المعارض ما فهمت عليك كتير، بسبب الضجة، والزحمة، يا ريت تعيد الموضوع بوضوح أكتر.**

أصغت بإنصات شديد وهو يحدثها عن سطوته وتغلغل عناصره في كلّ الدّوائر والمؤسسات، وقدرته على تأمين أي وثائق تحتاج إليها لتحقيق سبق صحفي، سارداً أطراف بعض ما يعرف، أكد لها أن أي صحفي أو كاتب مرموق لا يصل إلى مبتغاه ما لم يكن له مصدر معلومات، مبديا رغبته في التعاون معها، انفرجت أساريرها فرحاً عندما ظنت أنه جاء ليعطيها الفرصة السانحة لتثبت اسمها في عالم الصحافة راقت لها الفكرة فانشرحت أكثر فاغتبط وهو يشاهد وجهها الممتلئ يعود لألقه وانبساطه فانبرى يصور لها المكاسب التي ستجنيها في العمل معه، باغتته بسؤال أربكه عن سكوت الجهات الأمنية عن الفاسدين ما دامت تعرف كلّ هذا الكم من التجاوزات فباح لها بسرّ عمل هذه الجهات على استغلال ذلك لصالحهم لأنّ ذلك يجعل الموظفين والمسؤولين طوع بنانهم لأنهم يعلمون أنّهم مدانون فينصاعون لتنفيذ طلبات الجهات الأمنية دون تردد. جعلتها إجابته في وضع رابك فسألته:

- **طيب، شو رح نشتغل.؟!.**
- **بتعملي سبق صحفي عن طريقي وأنا بزودك بكل شي.**
- **يا سلام!! والله فكرت انك إنسان استغلالي وبصراحة أنا سعيدة بوجود أمثالك بالأمن.طيب يالله نباشر.**
- **أول شي نتفق.**
- **ما فهمت!!؟.**
- **شو رح ينوبني من الموضوع؟!.**
- **رح تساهم بمكافحة الفساد.**

ضحك ضحكاً هسترياً وهو يرفع رأسه إلى أعلى حتى كاد ينقلب وكرسيه إلى الخلف، وضع سبابته وإبهامه على طرفي فمه الكبير، مرر

إصبعيه على شفته السفلى لتلتقيا عند منتصفها دون أن يزيل مضغة اللعاب التي تربط بين شفتيه كساعة رملية تنقطع حينا وتلتصق حينا وتستقر حينا على شفته السفلى، شعرت باشمئزاز وامتعاض من ضحكته المصطنعة ومن مضغة لعابه البشعة فالتفتت جانبا.

- **يا آنسة!! مكافحة الفساد نكتة قديمة، نحنا اخترعناها، ونحنا بنلعبها بالوقت اللي بنشوفو مناسب،أنا بدي شي يخصني أنا بصراحة بدي مقابل.**
- **مصاري.؟!**
- **أنا بدي نكون أصدقاء، خلينا نقول... أكتر من أصدقاء.**
- **انت واحد حقير.**
- **بهالبلد اللي بدو يكبر لازم يدفع أو...ترفع، بتحبي احكي لك!! كيف بيصير الصحفيين، والمذيعين، والكتاب، والمديرين، والوزراء.**



كانت الساعة قد تجاوزت الثالثة عصراً عندما اجتازت عائشة الشارع ذاهبة اللبّ، مشتتة الذّهن، كادت تدحمها سيارة مسرعة لولا أنّ السائق تنبه لوجودها في اللحظة الأخيرة، كانت الأسئلة حول مصير جاسم تتزاحم في رأسها، ولا تجد إجابات لها، والأوضاع تزداد سوءاً، متراجعة للوراء بعد أن هدأ الحراك الثوري، عما قبل بدايات الثورة، عندما ولجت المنزل لم تأبه له، رأته بطرف عينها، تجاوزته متجاهلة وقوفه الذي تعرف مراميه، استوقفها بصوته الحاد، وقفت متجمدة ببرود كتمثال شمع مجردة من أي عاطفة، اقترب منها دار حولها، وهو ينفث دخان سيجارته اللف التي التصقت بشفته العليا، فتحت حقيبتها على عجل، أخرجت بعض النقود وضعتها في

يده، وتابعت سيرها، لكنه استوقفها ثانية قابضاً على عضدها بقوة، حاولت التخلص من قبضته، فلم تفلح، فتحت الحقيبة ثانية زادت المبلغ قليلاً، ابتسم كاشراً، بانت ثرمته الكبيرة، وأسنانه المتبقية البنية، غير المتناسقة، سارت نحو الغرفة الداخلية، أغلقت الباب بقوة، فارتعد مرتجفا تقدم في الممرّ الضيق، اقترب من الباب، دلبح ظهره، الصق عينه بثقب الباب، كانت تفتح أزرار عباءتها السوداء، نزولاً من صدرها حتى ركبتيها، لحس شفتيه وهو يرقبها تلقي العباءة على الحصيرة، أمسكت قميصها، أدخلت يديها تحت ذلذله، رفعته عاليا ساحبة جسدها منه ارتج نهداها الكبيران، انحنت لتمسك بزمام بنطالها، دفعته للأسفل حلّت عروة البنطال أمسكته لتدفعه نحو الأسفل حدق بها بشراهة، عضّ على لسانه، مسّد شاربه بأصابع يده اليمنى، شعر بدفعة قوية تلقيه جانباً يسقط على الأرض، تنحت عائشة جانباً مبتعدة عن الباب، حين تناهت إلى مسمعها أصوات الجلبة، وقفت المرأة فوقه صارخة:

- **يا عديم الناموس ما كفاك إني سترت عليك طول هالسنين لسع لاحق بنتي يا ابن الحرام بعد ما دهورت أبوها.**

صعقت عائشة لسماع صوت أمها وما تفوهت به، ارتدت ثيابها على عجل، فتحت الباب، فالفته يقبض على عقيصة أمها وقد سحب وجهها مائلاً قرب وجهه، مؤنباً بجمل تفصل بينها لحظات صمت، ورذاذ لعابه يتطاير على وجهها، دفعته عنها بقوة فترنح ساقطاً على الأرض وهو ينفض نثار جمر السيجارة عن ثيابه، وهو يحاول استجماع كلماته الغاضبة بصعوبة كأنه يبحث عن مفردات نسيها:

- **قوية بنت الكلب مثل أبوها.**

احتضنت أمها الباكية، جرّتها نحو الغرفة، حاولت تهدئتها، توسلت إليها لتكف عن العويل والبكاء، ولما أفلحت بتهدئتها استمالتها ببعض

العبارات مستجدية عاطفتها لتفسر لها ما تفوهت به قبل قليل عن والدها، تهربت الأم من الإجابة، ادعت أنها تفوهت بذلك في لحظة غضب مشيحة بوجهها ونظراتها عن عيني عائشة التي تمعنت بوجه أمها الذي تحفظه عن ظهر قلب في كل حالاته وتعرف متى تصدقها القول ومتى تداري مالا تريد الإفصاح عنه، مدركة أن ثمّة حقيقة غائبة عنها منذ سنين.

❁ ❁ ❁

عندما أنهى محمد أخر معاينة بعد ظهيرة يوم عمل طويل، خلع مريوله ليغادر، فاستوقفته الممرضة، لتخبره بوجود عنصر أمن يود مقابلته، خفض رأسه بحركتين متتاليتين لإدخاله وهو يتوقع أن يكون قد جاء ليقوم بمسح سياسي، فكلّ فترة يأتيه عنصر من أحد الفروع الكثيرة، ليسأل ذات الأسئلة العادية ثم يمضي.

- **مساء الخير..**

رفع محمد رأسه بفجاءة، نهض واقفاً وهو يمدّ يده بفتور، صافحه، ممعناً بوجهه محاولاً الحفر في دهاليز ذاكرته لمعرفة هوية ضيفه غير المرغوب به، موقناً أنّه رآه في مكان ما، لكنّه لم يفلح بمعرفة ذلك بالضبط، تجاهل محاولته عندما أخذ الرجل مكانه دون أن ينتظر الإذن أو الدعوة للجلوس، كأنه صاحب المكان، اثأر ذلك امتعاض محمد وحنقه.

- **أنا جاي بصفة رسمية، ومو رسمية، الحقيقة المعلم بعتني لأحكي معك كلمتين.**

شعر محمد برجفة طفيفة، تشاغل بتناول الماء ليداري ارتباكه، وقلقه عندما بدا يحدثه عن التفاصيل التي يعرفونها عنه، أخباره، تصريحاته، تحركاته، خلافه مع زوجته في وجهات النظر، روى له بالتفصيل كلّ المساعدات التي قدمها للوافدين من مناطق أخرى،

والبيـوت التـي دفـع أجارهـا مـن جيبـه الخـاص. لم تخلـو لهجتـه مـن تهديدات مبطنـة وإلمـاح لمـا سـتؤول إليـه الحـال إذا اسـتمر في تقـديم المعونـات وكعادتـه لم يـنس الثنـاء عـلى القيـادة الحكيمـة ودور قـوات الجيش الباسل والأمن في مكافحة الفساد والجماعات الإرهابية المسلحة.

وعندما بدأ بسرد ما جرى لعبد الرحمن ومجيد أحـس محمـد بهـاجس الخوف المكبوت يستيقظ ناهضا في أعماقه كمارد، يشل قدرته على التفكـير والرّد الذي تمنى لو يدفعه في وجهه ليفند حججـه وآراءه التـي رآهـا واهيـة ومختلقة. كـان يعـرف أنّ المـرور عـلى ذكـرهما يعنـي تهديـداً غـير مبـاشر بالمصير الذي ينتظره في حال تعنت وأصرّ على مجابهتهم. أمنيته بـأن يكـون سجين رأي، والتي تراوده كلّما قرأ روايـات أدب السـجون متخـيلاً نفسـه في موضع البطل الواثق من نفسه ومن صـدق معتقـده، وتضـحيته مـن أجـل عموم المجتمع تلاشت تحت سنابك الخوف الـذي اجتاحـه، لكنـه استشـف من الكلام مجرد تهديد قد ينتهي عنـد هـذه العتبـة عـلى الأقـل في الوقـت الراهن، سرّه هذا الاستنتاج الذي وصل إليه، فحاول أن يبدي رباطـة جـأش، وراح يفكر بالرّد، لكن لم تواته الشجاعة ليلقـي بمكنونـات نفسـه، تمنّـى لـو يقدر على الصراخ بوجهه وهو يحرك سبابته أمام عينيه: اسـمع نحـن نفهـم في السياسة أكثر منكم ومـن حـزبكم ونريـد صـالح البلـد الـذي أفسـدتموه ودمرتموه حتى تحول إلى مزرعـة خاصـة تنـاط بأشـخاص يرتعـون بخيراتهـا ويجوع الملايين من أهلها، سرّه هذا الخاطر بيد أنّه أبعده عن مجال التمنـي عندما وقف ضيفه شابكاً يديه خلف ظهـره يتأمـل اللوحـات المعلقـة عـلى الجدار وقال معلقاً بخبث دون أن يلتفت إليه:

- **فنانة ها المي ما هيك، بس برأي لازم تظل بفنها وألوانها أريـح راس، ولولا انو أخوها خالد إنسـان وطنـي وشريـف لكـان إلنـا معها تصرف تاني، بس يالله منشان عين تكرم مرج عيون.**

تداعى إلى ذهنه الحوار الأخير الذي جرى بينه وبين جاسم، حين أخبره أنّ خالد ترك العمل المخبري وبات يعمل قناصاً مع حاجز أمني في دمشق، لم يصدقه يومها معتبراً ذلك محاولة انتقام لا شعورية لتشويه صورته، لموقفه الرّافض لزواجه من مي، لكنه أيقن أنّ الأخبار التي وصلت جاسم كانت دقيقة، شعر بالندم لأنه وبخه وثار بوجهه.

تنقل بين اللوحات والخرائط والمصورات التي ملأت جدران العيادة توقف عند صور الفوتوغرافية القديمة التي تصور قطعان ماشية ترد جوابي قليب:

- **شوف بلدكن وين كانت ووين صارت بفضلنا وبفضل القيادة الحكيمة.**
- **هذا الكلام...**
- **اسمح لي أقاطعك دكتور، أنا جاي لأحكي كلمتين وأمشي، اليوم الزيارة وديّة، بس...لا تفكر حالك إذا صرت دكتور مشهور، انك أكبر من الجرجرة نحنا إذا جد الجد بننسى كلّ الشهادات، لأن أمن الوطن فوق كلّ الاعتبارات، ولا تفكر للحظة إنا غافلين. عيونا حواليك بكل مكان، ولا تستبعد حدا من دائرة الشك، أخ أو صديق، أو...أو حبيب، الحيطان الها آذان عن إذنك.**

أخرج نظارته الشمسية وضعها على عينيه خرج، ثمّ عاد ثانية وقال وهو يلبس نظارته السوداء:

- **نحنا مقدرين وضعك منشان خاطر عمك، وأخوال أسعد.**

اصطنع ضحكة ومضى، وقف محمد حائراً، مشتت الذهن، يتفكر فيما سمع، تمنى لو واتته الجرأة ليقول له:

- **أنتم قتلتم الحس الوطني في الناس، كل مواطن يفاخر بجنسيته إلا عندنا، يخاف أن يقول أنا سوري خشية أن يظنّ أنّه يمالئ ويحابي ويتملق، إلا المتملقين الفاسدين لأنّكم طبّقتم**

سياسة الوطنية آخر ملجأ للمحتالين، الناس في كل بقاع الأرض محكومون بالأمل، أما نحن فمحكومون بخوف نسكنه، وخوف يسكننا، بتنا نعاف الحياة، ونخشى الموت، الأرض لم تعد تعني لنا سوى العودة إلى الأصل. السماء فراغ أبله، مخيف، لا ينبغي أن نتطلع إليه، المستقبل غول، والماضي سعلاة، لقد حولتم الوطن إلى زنزانة كبيرة، جدرانها الخوف.

سار نحو النافذة التي يذهب إليها عندما تغادر توق، ليلقي عليها آخر نظرة وهي تمضي منصرفة نحو موقف النقل الداخلي. أمعن ينظر ليتأكد من نزوله، شاهده وهو يقترب من سيارته، فتح باب السيارة، انحنى ليدخل ثم عدل قامته، انزل النظارة عن عينيه ونظر إلى النافذة فأحس محمد بتيار كهرباء يسري في جسده، أصابته رعدة مفاجئة، تراجع للوراء قليلاً كأنّه يتقي سهام النظرة القاسية، انسدلت صورتها وهي تقف في صالة المعرض كستارة أمام عينيه، في تلك اللحظة بالذات تذكر أين ومتى رأى سحنة هذا الرجل.

۞ ۞ ۞

على الرّغم من قتامة العِصابة وبشاعتها إلا أنّهما استطاعا بعين البصيرة أن يريا المدينة قبل الوصول إليها تغلغلت نسائم الهواء الغربي المشبع بعبير الفرات ورطوبته، إلى روحيهما. هذه الرحلة لم تدم أكثر من ساعة، حسب تقديرهما لكنها كانت أشد وقعاً مما توقعا، ودّعا الشيخ عبود قبل خروجهما منقولين إلى الطبقة، كان وداعاً مؤلماً وثقيلاً، تخللته لحظات بكاء ودموع سجام، وحرقة تكوي الجوى.

انتهت الرحلة بحلاوتها ومرارتها في الطبقة، سلما إلى سجنها المركزي في الجهة الغربية قريباً من الفرات الحبيس وراء سد إسمنتي

بـارد بليـد. الزنزانـة عـلى سـعتها بـدت ضـيقة في عينـيهما، خانقـة لروحهما لأنّ بث قناة الدنيا متواصل لـيلاً و نهـاراً مطـلاً مـن شاشـة كبيرة معلقة قريباً من السّقف.

خليط السجناء كان متنوعاً مـن موقـوفين وأصـحاب سـوابق ومـدمنين وسجناء رأي ومتظاهرين، سبقوهم بالعودة من فروع جهنم، ليعرضوا عـلى القاضي الذي أرجـأ الإفـراج عـنهم للوقـوف عـلى التعلـيمات الخاصـة بهـذا الشأن. لم يكن اتساع الزنزانة ورحابتها ليغيّر في واقـع الحـال شـيئاً بالنسـبة لهما، ولم يبعث فيهم الباب الفتوح على مصراعيه أي ارتياح، فتلك امتيـازات خاصة بالسجناء غير السياسيين الـذين يـدفعون لقـاء هـذه الامتيـازات، أمـا عبد الرحمن ومجيد فلم يكن ليتاح لهما ذلك ولو دفعا كنوز الأرض.

الإحساس بالزمن أصبح أشد وطأة مما كان عليه في الفروع السـابقة لأنهما لم يكونا في انتظار الخروج أو توقعه، عقارب الساعة باتت تمـارس لسعا سادياً قاتلاً وهي تنزلق ببطء شديد فـوق القـرص الـدائري، كأنهـا تسير خطوة وتعود إلى الوراء خطوات.

الزيارة الوحيدة التي سمح لهما بهـا والتـي اعتبراهـا طاقـة فتحـت لهما من الجنة انقلبت وبالاً عليهما عندما نقل شقيق عبـد الـرحمن لـه مـا تداولـه بعـض النـاس مـن احـتمال تحـويلهما إلى دمشـق. انقـبض صدراهما وتجهم وجهاهما ليومين لاحقين فقدا فيها القدرة على التفكير أو الحوار لعلمهما أنّ التحويل إلى العاصمة لا شك يمـرّ عـبر بوابـة فـرع فلسطين الذي يهز قلوب الجبابرة.

في صبيحة اليوم الثالث دخل عنصر يحمل بيده وريقـة نـادى عـلى بعض السجناء مـن خلفـه آخـر يحمـل أضـابير ومصـنفات تتعلـق بمـن أذيعت أسماءهم، فوجئا بتلاوة اسميهما، دهمها القلق، وهما يظنان أنّ

النهاية قد اقتربت وأنّ ما كانا يخشيانه قد تحقق لولا أنّ العنصر الذي ذاع الأسماء أردف:

- **اللي انذاع اسمه يلحقني منشان ينعرض ع المحكمة.**

انقشعت غمامة الغم التي كللت روحيهما على مدى الأيام السابقة. حشر الجميع بسيارة جيب صغيرة كربسوا فوق بعضهم بعضاً، تحت صراخ وجؤار العناصر المدججين بالأسلحة والهراوات، وقد قيدت أيديهم، لكن الذي أسعدهم هذه المرّة غياب العصب العينية، فرأوا بعض معالم المدينة التي افتقدوها منذ أمد بعيد، وعندما وصلوا أعيد سجنهم ثانية في زنزانة ضيقة لم تكن لتتسع لهم. كان عبد الرحمن سابع المستدعيين للمثول بين يدي القاضي الذي بدا له سمح الوجه جميل المنظر، وكان يقلب اضبارته بصمت وهو لا يعرف ما يفعل حيال السجناء الذين اعترفوا بالتهم الموجّهة لهم، لولا أنّ عبد الرحمن خلع قميصه أمامه، وعندما شاهد آثار الضرب والتعذيب وقف غاضباً وهو يصرخ:

- **منين جايبين هالوحوش لعمى بعيونهم لازم يتحاسبوا.**

عندما أعيدوا للزنزانة كان الجميع مستغرباً من طريقة تعاطي، وتعاطف القاضي معهم، وعلى الرغم من ذلك لم يستطع إخلاء سبيلهم فوراً، بسبب التخبط الحاصل بعد رفع حالة الطوارئ، وإلغاء محكمة أمن الدولة العليا، دون أن تكون هناك تعليمات واضحة، تخص حالات كهذه، ولأنّ جهات حزبية وأمنية ستسأله وتراجعه في الموضوع، وكما توقع حميد فإنّ القاضي لم يسلم من العتب لهذا التعاطف فنقل قبل خروجهم بيومين إلى منطقة ريفية نائية، وتلقى توبيخاً حاد اللهجة لما تفوّه به أمام السجناء.

❁ ❁ ❁

توجهت عائشة إلى بيت جدتها العجوز وكما توقعت وجدتها تجلس في أرض الدار تفلي حفيدتها الصغيرة، وحين يخيل إليها أنها أمسكت قملة تطبق عليها بين ظفري إبهاميها لتقصعها، وهي تكزّ على أسنانها مصدرة صوت أفففففففف، كأنها تشفي غليلها منها، تلك العادة التي لم تقلع عنها رغم الشجارات الكثيرة مع كنتها التي حاولت كثيراً إقناعها أنّ القمل وزمانه قد ولى، اقتربت عائشة منها ربتت على كتفها، انحنت لتقبل يدها فمانعتها الجدة بحزم. وجدت ابنة خالها الفرصة سانحة فانسلت من حضن الجدة هاربة لتلعب خارج الدار.

كانت عائشة على دراية بالطريقة التي تجعل العجوز تبوح بما في قلبها، وما تكتم عندما بدأت تحدثها عن سحر الماضي، وحلاوته، فانبرت تتحدث بإسهاب وتفصيل وعائشة تناور مقتربة من الموضوع بحرص، وحذر فأسهبت العجوز بسرد القصة عندما وجدت من يستمع إليها بدل أن تحدث الجدران، أخبرتها أنّ صلال زوج أمها كان مساعداً في الأمن يخدم في السجن الذي قبع فيه أبوها بتهمة الانتماء إلى الإخوان، وأنّه كان وسيطاً سرياً بين العائلة وأبيها، ويوماً بعد يوم بدأت تكثر زياراته، منذ أن تعرف إلى العائلة حتى صار كأنّه واحد منها، تغلغل في الأسرة، تقرّب من الأطفال والأم التي كانت تشعر أنّه هبة ونعمة أرسلتها السماء، لتعرف أخبار زوجها، يزوده بالمال وبعض الحاجيات التي كانت ترسلها إليه مقتطعة من لقمة أبنائها، حتى جاء ذات يوم شاحب الوجه، حزيناً ليخبرهم أنّ الأب قد مات بمرض عضال، وأنّه حاول مساعدته جهد قدرته، لكن إدارة السجن رفضت تدخله وتوسله، فقدم استقالته احتجاجاً على موقفهم غير الإنساني المتعنت. كبر الرجل في عينهم وصاروا يرون فيه المخلص لبؤس وشقاء العائلة، مدعياً التضحية ليعوض الأرملة وأطفالها عن شظف الحياة وشقائها.

كانت عائشة في تلك الأثناء طفلة لا تعي ما يدور حولها من أحداث، لكنها عاشتها في هذه اللحظة كأنها تحدث الآن فاعتصرها الحزن والحقد وهي تنتظر من الجدّة أن تكمل لكن آمالها تلاشت عندما عاد خالها، فأحجمت الجدّة عن الكلام خوفاً من التقريع واللوم لإخبار عائشة بما حدث، لأنهم يعرفون طبيعتها الشرسة. كانت الجدّة تودّ إخبارها أنّ معظم الجيران عرفوا الحقيقة عندما خرج والدها من السجن، وعاد لبيته ليفاجأ بأنّ صلال الذي كان أشد أعدائه قسوة وحنقا قد تزوج امرأته وضم أولاده إليه، لم يحتمل الرجل الصدمة، فخر ميتاً إثر نوبة قلبية. وأنّ أمها قد ترملت مرتين، وعانت الأمرين في سبيل الخلاص منه، لكنه رفض تطليقها وهدّدها بقتل أبنائها أو سجنهم إذا عادت إلى ذلك ثانية، فاستسلمت لتحمي بنيها. الحي كله كان يعرف الحقيقة لكنّ أحداً لم يجرؤ على التدخل خشية أن تلفق له تهمة الانتماء إلى الإخوان من قبل صلال.



فوجئت به يقف أمام مكتبها، وهي تحاول جمع أغراضها للخروج، أصابها ارتباك، وقفت تنظر إليه للحظة، دون أن تنطق ببنت شفة، سحب الكرسي الخشبي، جلس بهدوء، وضع زنده على الطاولة، رمقها بسكينة، فانبرت حاولت كسر كاهل الصّمت الثقيل بقول شيء لم تقدر، جلست خلف مكتبها بتوتر، اصطنعت ابتسامة تعثرت بين البله والحزن، بدت نافرة عن معالم وجهها، وهي تحاول التركيز والتفكير بالأمر الجلل الذي جعله يترك عمله، وعيادته ليزورها في مقرّ عملها، خفضت بصرها بخفر، عندما نظر في عينيها، شعرت أن نظرته تنفذ إلى صميمها، فانبرت تحدثه عن الرواية الأخيرة وما دار فيها من أحداث فقاطعها قائلاً:

- **لماذا طلبت مني ألا أتصل بك...**

عندما بدأت بسرد أعذارها بدت له صادقة في كلامها كانت تتحدث بدون تكلف بجمل مترابطة عن خوف والدها الذي يحاصرها في البيت يفتش جهازها بحثاً عن مكالمات. استعرض كلّ الأسماء ومسح معظمها مستثنياً الأقارب والأهل لخوفه عليها من انتقامات أوصلت إليه من شخص ما لأنّها تكتب عن جوانب سلبية في بعض الدوائر بات مقتنعاً أنّ ابنته مستهدفة، حاولت إقناعه بنفي الفكرة لكنها لم تفلح.

سألها عن المعرض، وقد أتأر[٨٣] النظر إليها، سجمت للحظة وعيناها توصوصان، رنت إلى السقف، قبل أن تخبره أنّ الشاب الذي التقته في المعرض مواطن يريد نشر شكوى في الصحيفة حول عقار مخالف ثمّ سكتت فجأة عندما قاطعها بنبرة حادة:

- **مواطن عادي.؟!.**

حاولت النّهوض لتقترب منه، رفع يده في وجهها، فجلست صالحة تنظر بعينيه وحدقتا عينيها تتذبذبان بحركة لا إرادية يمنة ويسرة. بلعت ريقها، أحست بجفاف بحلقها وفمها، شعرت بقلبها يصعد، ينبض في حلقها كفرخ طائر يُعتصر بقوة، استجمعت قواها وقالت بصوت متهدج:

- **محمد.!!**
- **ليس.**

انزلقت الدمعتان اللتان كانتا تترقرقان في الطرف الأنسي لمقلتيها، كأنهما تتسابقان في النزول انحدرتا بمحاذاة أنفها المدبب الدقيق، سقطتا من حافة الشفة العليا، لتسقطا فوق الصحيفة المطوية أمامها، تشرّبهما ورق الصحيفة الشره تغلغلتا في مسامات الورق كنزاز ينتشر على شكل

---

[٨٣] أتأر نظره: أحدّه.

دائرتين كبرتا حتى تلاقتا، راقبهما بهدوء وتوق تنظر في عينيه العميقتين بصمت وخشوع. تنهد بعمقٍ وقال:

- **على العموم وداعاً.**

وقعت كلمة الوداع كخنجر في قلبها، اخترقت شغافه، ووصلت إلى الصميم، ثم أجهز عليها نهوضه المفاجئ، حاولت أن تستوقفه، أن تنطق، لم تستطع، أشار لها بيديه المتقاطعتين في الهواء، فلجمتها الحركة، وقفت تراقبه، وهو يخرج تبعته نحو البهو، وهو يبتعد قاطعاً الحديقة الصغيرة نحو سيارته، وقد اغرورقت عيناها بدمع غزير جعل الرؤية تغيم، كأنّها تراه من خلف زجاج مكّسر.

❀ ❀ ❀

في صبيحة اليوم التالي لخروجه، فوجئ الجميع به في المصلحة، لم يستغرب حالة البرود التي استقبل بها من قبل سماح، وبشرى، وموظفين آخرين تقصدوا إزعاجه بتعليقاتهم الساخرة حول العصابات المسلحة، والإرهابيين وغالت سماح عنوة بأقوالها الاستفزازية، وسخريتها من المتظاهرين، تبعها بعضهم وأمّن بعضهم على دعائها، ابتسم عبد الرحمن وهو يغادرهم دون أن يبدي أي امتعاض لكي لا ينيلها مأربها وعندما وضع المفتاح في قفل الباب فوجئ به غير مقفل دفع الباب بهدوء فوقف مشدوهاً، عندما وجدها تقف قبالته وقد تقدمت حين سمعت صوت خلخلة القفل ظانة أن أحداً ما يعبث به، تلعثم حاول أن يتحدث تلاشت كلماته، نظرتها الحادة العميقة أفقدته القدرة على الاعتذار، عاد نحو الوراء نظر أعلى الباب أيقن أن المكتب ذاته، جفل عندما قبضت على عضديه يدان قويتان استدار ليجد أيمن وراءه فاغراً

فاه احتضنه بقوة كطفل صغير تلاشت قامته الصغيرة في حضن أيمن مستسلماً ولم تفارقه الفجاءة بعد.

خمنت عائشة أنّه عبد الرحمن ذاته وإن تباينت صورته عن الصورة الذهنية التي تخيلتها له في ذهنها، فقد تصورته أسمر ، فارع الطول عريض المنكبين والوجه بشارب ضخم يغطي وجهه، على حين وجدته ربع القامة، نحيلاً حنطي اللون بشارب رفيع وحاجبين عريضين. صورة لا تتناسب مع ما سمعت عن شخصيته القوية وقصص الغرام الكثيرة التي سمعت عنها حتى حذروها منه قبل خروجه لأن فتاة لم تسلم منه في المصلحة.

ابتسمت عائشة وقد تورّد خداها، حين تولى أيمن تقديمه لها معرفاً إياه بأنه مشاكس وصاحب سوابق، فقالت:

– **الحبس بمثل حالتك شرف الله يطعمنا هالشرف.**

بهرته جملتها المقتضبة، مد يده ليصافحها، لكنها وضعت يدها على صدرها، هزّت رأسها ورفعت حاجبيها، ففهم أنها لا تصافح الرجال، خفض يده ومال إلى أيمن مفضيا إليه برغبته العارمة إلى فنجان قهوة، وهو لا يعرف أن أيمن كان قد أعدها مسبقاً، أخذ فنجانه ارتشف حسوة على ظمأ وهو يؤرش[٨٤] سيجارة غبّ نفساً عميقاً، نفخ الدخان على يده وساعديه كعادته، ثمّ رفع بصره، التقت عيناه بعينيها، خفض بصره خفراً، لم يستطع مقاومة نظرتها الحادة، نهض اقترب من الطاولة، تحسس سطحها الزجاجي، دار دورة كاملة مستعرضا الغرفة التي لم تتغير كثيرا، لكنها بدت أكثر تناسقا وترتيباً، أعادت عائشة توزيع الأشياء فيها منحتها بعض الجمال والحياة، وزعت أصص الزهور في الزوايا بأناقة وبحسٍّ أنثوي أضفى على المكان ظلال حسن ورتابة.

---

[٨٤] يشعل.

- **صديقك الأستاذ جاسم، كمان اجا لعنا؟**
- **وينو.؟**

عندما أخبرته عائشة بما حدث لجاسم بحزن وأسى وهي تتنهد بحسرة، زمّ عبد الرحمن شفتيه ومطهما للأمام متأثراً لما حلّ به وهو يعرف أنّ حالته الصحية المتردّية لن تحتمل أي تعذيب سيمارسونه بحقه غير مبالين بوهنه وهزاله. عمدت عائشة، إلى تغييب سيرة جاسم ،بدأت بسرد أحاديث ذات صلة بالثورة، عندما استشعرت حالة الكآبة التي خيمت عليه، وهو يتحدث عن جاسم، لكنه لم يفارق موضوعه كثيراً حكى لها ما قاساه في السجون على أيدي جلاديه، وأن أشدهم قسوة وانتقاماً هم أبناء جلدته، ومنطقته، كأنهم موتورون منه، لأنه خرج ورفاقه يطالبون بالكرامة والحرية. كأنهم استمرؤوا العبودية، والذّل أو وجدوا فيها مرتعاً خصباً لهم ولجبنهم وخوفهم من القادم الذي يخشونه بعد أن اعتادوا هذه الحياة فطبيعة الناس في هذه المنطقة تخاف التغيير وتخشى المجهول والمستقبل.

حاولت أن تبحث عن تفسير لتصرفهم ملتمسة لهم أعذار الجهل، ونقص الوعي، والخوف، ففاجأها بأنّ مردّ ذلك هو العقدة الكامنة في الشخصية العربية، التي تتلذّذ بصناعة الطغاة والطواغيت، حدّثها عن نظرية العقد الاجتماعي التي نقلت المجتمعات نقلة نوعية، نحو التمدن، والتحضر في كلّ البلدان والتي كانت تقوم على اختيار الأقوى، والأصلح في تلك البلدان، أما المجتمعات العربية فكانت تقدم القوة على الصلاح وتكتفي بها إذا غاب. استشهد على ذلك بحالة البدو التي لا تختلف عن حالة الحضر كثيراً، إلا بفارق المسميات، فهم يولون على أنفسهم أقواهم، حتى إذا سادهم أضفوا عليه هالات من القداسة، والإلوهية ليتسرب ذلك إلى نفسه ويخالطه الشعور بالعظمة، والتفوق حتى إذا طغى وتجبّر ازدادوا طاعة ليباركوا تصلفه، وطغيانه، وأنّ التاريخ البدوي لم يذكر حالة انقلاب عشيرة، أو قبيلة على شيخها.

ظنت عائشة للحظة، وهي تستمع إليه أنّه يتخذ من حالة صلال مثلاً لصناعة الطغاة، ولم تنف لنفسها أن يكون على معرفة به، وبغيره من جلاوذة الأمن لأنّ الناس تلوك سيرتهم دائماً، وإن كانت تستبعد معرفته لدقائق الأمور وأنّه زوج أمها. رنين الهاتف في حقيبتها أخرجها من دائرة هذه الظنون عندما اتصلت بها مي التي سمعت بخبر إطلاق سراحه فخابرتها لتطمئن عليه أعطته الخلوي وهي تنظر إليه حين بدأ يحادث مي جائباً الغرفة جيئة وذهاباً.

❁ ❁ ❁

شعرت توق بالندم لقدومها إلى بيت مي، كانت تريد الفضفضة، والبوح بمكنونات قلبها، علّها تريح روحها قليلاً من ثقل الأعباء التي ترهق كاهلها، همّت تفضي بسرها، لكنّها تراجعت، حامت حول أرقها، وتعبها، دون إفصاح بحقيقة ما يسهدها ويقض مضجعها، بعد الذي حدث في بيت المرأة العجوز.

استعادت توق بعض تفاصيل المشهد في ذهنها مرّ أمام عينيها شريطا متقطعاً، أحست بتوعك وشعور بالاشمئزاز والتقزز، أحست بتقبض جسدها، غامت الأشياء أمام عينيها دار الفضاء، مدت يدها المرتجفة نحو كأس الماء صدمته بيدها وقع على بلاط الغرفة تشظّى قطعاً صغيرة كروحها سارعت مي إليها احتضنتها بين ذراعيها خائفة مما انتابها حاولت أن تتصل بمحمد لينجدها لكن توق سحبت الهاتف من يدها أعادت السماعة بصعوبة بالغة إلى مكانها نهضت مترنحة، لتغادر تحسست الكنبة باحثة عن حقيبة يدها عادت للجلوس لاهثة التقطت أنفاسها بصعوبة ظلت مطرقة تحدق بأرض الغرفة تنتابها خلجات متقطعة ورجفة، بين لحظة وأخرى.

- **خير حبيبتي شو في.؟!**

كانت توق المتماسكة على جسدها كتلة من لحم تتنابه هواجس وأحزان تنهش روحها كجيش ذؤبان ضارية، أما روحها فكانت أشد تشظياً من الكأس الذي كسرته، حاولت جمع شتاتها، فازداد شعورها بالتلاشي والضياع أكثر، كأنها تركض وراء ماء في قيعان سراب، فقدت اللغة قدرتها على حمل ما تعانيه لأن اللغة نفسها فقدت قدرتها على التعبير تحولت الكلمات إلى طلاسم بلا مدلولات، لم تعرف ما تقول، ومن أين تبدأ، وكأنها تسبح في عماء سرمدي لا متناهٍ، الابتسامة التي حاولت جاهدة رسمها جاءت متعثرة واهية تمازجت فيها أحاسيس متنافرة متناقضة سادها اضطراب وضياع أفقد عينيها المترقرقتين بريقهما:

- **مجرد إرهاق شوية نوم ويمكن يزول.**
- **مو صحيح هالكلام، اعتبريني مرايتك واحكي لي بصراحةً.**

هزّت يدها في الهواء بحركة لا إرادية، عندما لم تجد ما ترد به، نهضت واقفة فتدلى شعرها الأسود الفاحم على كتفيها شلال ظلام دامس، تشاغلت مي بملاعبة شعرها لتفكر بما يجب عليها فعله، حاولت أن تجلسها، لكنها أبت، حملت حقيبة يدها، قبّلت وجنة مي قبلة طويلة وقالت:

- **بس يجي الوقت المناسب بنحكي، باي حبيبتي، بدي اختلي بنفسي.**

سارت نحو الباب بخطى مترنحة وهي تجرّ قدميها بتثاقل، رفعت يدها مودعة دون أن تلتفت خلفها. كان الشارع شبه خاو إلا من بعض الناس، لم تشأ أن تذهب إلى البيت بسيارة أجرة، كما اعتادت أن تفعل، انعطفت نحو الطريق الجانبي المحاذي للفرات تراقب زرقة الماء بعينين متعطشتين كأنّها ترى الفرات ونوارسه وضفافه لأول مرّة.

انتهت إلى ذات الطاولة التي اعتادا الجلوس حولها، طلبت نرجيلة وفنجان قهوة خالية من السكر، وضعت يديها على الطاولة شابكت أصابعها تحت ذقنها، وأنعمت النظر في الازرقاق اللامتناهي حيث تتعانق زرقتا الماء والسماء. كانت روحها ميالة للنزول لكنها خشيت الهبوط لوعورة المنحدر الجرفي الملاصق لجسد النهر، تاقت للمسه لاحتضان حفنة من مائه للبوح له لمناجاته ومناداته لتهمس في جزيئاته بما يثقل كاهلها ويعتريها لأنّه لم يعد في عينيها مجرد مسطح مائي مخيف بل بات معادلاً لمحمد، محمد الذي افتقدته روحها في هذا الضنك، والضيم، والضيق. محمد الذي حدثها عن سرواته في إصباحات باكرة أحياناً، وأحياناً في حلكة الغبش الليلي، ليأخذ حفنة ماء باردة يرشها على وجهه، ليتوحد به، ويبدأ ببوح تباريحه وشجونه وآلامه، باحثاً عن لحظة وجد ترفع فيها الحُجب بين المحبين، فيرتقي إليه في معارج الفناء، كمريد يخرج من جُبة الجسد وإنيته ليتوحد فيه متماً حضوره في أقاصي الغياب.

تداعت الذكريات تجر وراءها ذكريات، هيمنت صورته على ذهنها، تذكرت معظم أحاديثه، حركات يديه، معالم وجهه نبرته الخطابية العالية، حدته في النقاش، عندما ينفعل، وهو يتحدث في مواضيع الثورة، والأحداث الأخيرة . تذكرت الحزن، والأسى والحقد الذي ملأ وجهه عندما زارها أمس حملت على نفسها بشدة لأنّها لم تخبره حقيقة ما دار بينها وبين شكري، وسرعان ما تصاعد صوت بداخلها يحمد لها عدم فعلها ذلك، لأنّه لن يفهم الموضوع بجلية، وربما سينظر إليها كفتاة رخيصة، وإلا لما تجرأ شكري على ما قال وطلب. لم تشعر بالنادل الذي وضع فنجان القهوة، واتبعه بالنرجيلة التي لا تدخنها، لكنها طلبتها فقد لمجرد التغيير، أرادت أن تصنع دوائر دخان، تناولت المبسم، وضعته على خرطوم النرجيلة، سحبت نفساً عميقاً،

شـعرت بـدوار، ودبيـب خـدر يسري في عروقهـا، وضـعت الخرطـوم عـلى الطاولة، رشفت فنجان قهوتها على عجل دون أن تشـعر. أحسـت بالحاجـة إلى النوم، صرّت عينيها بقوة نفضت رأسها بحركة خفيفـة، وهـي تحـاول أن تبعد هاجس النعاس عن رأسها، تملكها شـعور بإحبـاط أشـدّ وهـي تحـاول التركيز أكثر بما حدث. غادرت المقهى متجهـة إلى البيـت، وعيناهـا تلـتهمان زرقة الفرات بنهم، بدا الطريق طويلا عـلى غـير مـا تشـعر بـه في كـلّ مـرّة الأبنية المتناثرة على الضفة الجنوبية بأشـكال واتجاهـات مختلفـة متداخلـة متباينة لم تشغلها، الحديقة المترامية عـلى كتـف الضـفة الغافيـة، لم تأسرهـا كما كانت قبلا السيارات الصـغيرة ومئذنـة الجـامع المتسـامقة لم تـثر فيهـا الخوف كلما رفعت نظرها تتابع تسامقها في السماء، لم تثر فيها رهابهـا مـن الارتفاعات العالية لأنها دائما تتصور نفسها واقفة فوقها، المئذنة بعثت فيهـا طمأنينة وهدوءاً وسكينة وهـي تجتـاز الشـارع الـرئيس نحـو حيّهـا الغـربي الغافي على عتبات المدينة غربـاً دلفـت إلى البنـاء الـذي يطـلّ عـلى البحـيرة حيث ترنو إلى قلعة جعبر التي ترصـع الضـفة المقابلـة كجـوهرة مـن زمـرد ويـاقوت أحمـر، لم تخـرج إلى الشرفـة كعادتهـا، ولجـت إلى غرفتهـا، ألقـت جسدها المتعب على السرير وأغفت على عجل كما لم تفعل قبلها أبداً.

❁ ❁ ❁

تقلّب في مضطجعه القضيض، غطى وجهه باللحـاف، أزاحـه، شـابك يديه خلف رأسه، رانيا إلى الحائط، تناوبته الغصـص ذكريـاتٍ، ذكريـات بنكهة مرارة وحزن لا يبارح القلب علقمها، تـذكر ضـحكة عائشـة حـين قصّ عليها فرحة جـاره الـذي أخـذ هويتـه مـن أبيـه دون علمـه، وجـاء يبشره بقبول انتسابه للحـزب، جـن جنونـه ثـار في وجهـه بهـت الرجـل وجمد للحظة، مضى من فوره ليقدم طلب انسحاب، لم يبت فيه إلا بعد

أن علموا أنّ شقيقه الأصغر معتقل سياسي حكم عليه بثلاث سنوات سجن وخرج بعد خمس سنوات ونصف بعفو رئاسي.!! علقت بجملة مقتضبة: لا أعرف إن كان علي أن أضحك أم أبكي. لكنها ضحكت حين أخبرها عن مشاكساته مع مدرس التربية القومية لكي يطرده من الدرس فيخرج فرحاً نشوان، وتأخره المقصود عن ترديد الشعار مؤثراً توبيخ المدير على ما سمّاه الجلد بالشعارات. في المرحلة الجامعية خفف من حدة جداله خوف ألا يتخرج.

حاول مقاومة رغبته في الذهاب إلى المصلحة، تناوم غير مرّة، لكنّ النعاس فارق جفنيه، كأن حرباً شعواء أعلنت بينهما، نفى لنفسه رغبته بلقاء عائشة حاول تسويغ الذهاب، لمعرفة أخبار جاسم كما يفعل كل صباح، لكنه في لحظة مصارحة مع الذات اعترف لنفسه أنّ الأمر ليس متعلقاً بجاسم، وإنّ كان يريد معرفة أخباره، ارتدى ملابسه على عجل، وسط ذهول أخوته، وأمه التي استوقفته عند الباب قائلة:

- **إن شاء الله رايح للرقة.؟!**

رفع حاجبيه عالياً، وراح يرقصهما، لم يجد ما يقول لها، عرف أنّها لن تقدر لهفته لرؤية عائشة، وستؤنبه لو عرفت بأنّ ذلك متاح غداً، أو بعد غدٍ، وأنّ عليه أولاً أن يسعى جاهداً لعودته للعمل. كانت تعرفه وتعرف أنه لن يذهب ليستجدي أحداً ليعيده إلى العمل. سرّح شعره بيديه بعد أن بلله ببعض الماء وزيت الزيتون، ومضى مسرعاً

عندما مدّ يده بجيبه، لم يجد ما يكفي لسيارة أجرة، تابع طريقه نحو المصلحة سيراً على قدميه، وهو ينعم النظر في الشارع الرئيس الذي يربط بين قسمي المدينة ، قسمها الجنوبي ذي المحلات التجارية المنتشرة على جانبي الطريق مشكلة سوقا تجارياً، وعلى الجهة الشرقية تمتد المنازل البسيطة ذات الطابق الواحد زاحفة في كافة الاتجاهات في

الناحيـة الجنوبيـة التـي تقطنهـا الغالبيـة المسـحوقة فقـراً وإهـمالاً وفي قسمها الشمالي تنهض الأبنية الطابقية التي بناها الروس إبّان بناء السّـد وبيعت في الآونة الأخيرة لقاطنيها الذي ينعمون بخدمات أكـثر وتقطنهـا الغالبية من الأجناب الذين وفدوا إلى المدينة، تفصل بينهما سـكة قطـار هجرها القطار منذ أمد بعيد.

كان الطريق شبه خاو إلا من أكياس القمامة وقطعـان المـاعز التـي يفرج عنها كـل صباح لتلـتقط رزقهـا في الشـارع وبعـض النـاس الـذين غـادروا إلى أمـاكن عملهـم، بعيـون منتفخـة، ووجـوه متـوردة، كـأنّهم أخرجوا من أسرّتهم قبل أن يكملوا طقوس نـومهم. في منتصـف السـوق التجارية التي ما زالت معظم محالها التجارية مغلقـة، وقـف مشـدوها يشاهد امرأة عجوز تبحث في كدس قمامة، تلتقط منها ما يسـدّ رمقهـا، تأملها ملياً كانت المرأة قد أسنّت، وفارقها الحيل، تسند جسدها الواهن إلى عصا يابسة، تتكـئ عليهـا حينـاً، وتنـبش بهـا الأوسـاخ حينـاً والنـاس يمرّون بها وكأنّها شـفيفة لا تـرى، شـعر بـدوار يأخـذه عـن نفسـه، عـن واقعه، شغلت المرأة جلّ تفكيره قال لنفسه بألم:

- **حقا ما اغتنى غني إلا بفقـر فقـير!! لقـد أثـروا والنـاس تمـوت جوعاً، لم يعاد هناك طبقة وسطى الناس باتوا بين غنى فـاحش وهم قلة وآخرين بفقر مدقع وهو الغالبية.!!**

دلس يده في جيبه، أخرج نقوده القليلة فلم يـجسر عـلى الـذهاب إليها، خجل أن يعطيها مبلغه الزهيد، خاف أن ترفض الأعطيـة قلّـت أو كثرت، أحنى رأسه بحزن، تابع سيره وقد بـدت الأشـياء غائمـة، وضـبابية يلفها سديم أسود يرتفع عالياً ليلفّ الكون بأسره.

اتخذ الطريق الجديد من خلف مركز الانطلاق ليختصر الدرب سـار بين أشجار السرو والكينا مقترباً من مبنى المديرية ذي الطـابق الأحـادي

الممتد على الشارع المحاذي للبحيرة، هم يعبر نحو الضفة الثانية منحدراً في الوادي الذي يوصله إلى البحيرة هروباً من إحساسه بأنّ الجميع قد باتوا يعرفون سرّ مواظبته على الدّوام أكثر من ذي قبل على الرغم عدم الموافقة على عودته إلى العمل بشكل رسمي. حاول مراراً أن يتصرف مثلها بغير مبالاة بمن حولها فلا تلقي بالاً لما يؤول ويفسر لجلوسها معه لساعات، أما هو فيضطر للخروج مرات يستطلع المكان يخشى أن يكون هناك من يتلصص أو يتجسس عليهما. تجلس بأعصاب باردة حانية رأسها على مسند المقعد تنظر إليه وتغفو أحيانا دون أن تشعر.

كانت عائشة تجلس قبالة الباب عندما دلف إلى المصلحة، رأى قامتها الفارعة من بعيد، تلألأ عينيها الواسعتين الكبيرتين، وجهها الأسمر الممتلئ، تسارعت دقات قلبه أحسّ بمشاعر غريبة تضطرب داخله كاد يقفل راجعاً، بعيداً عن المصلحة متجهاً نحو المنطقة الغربية حيث يسير بمحاذاة الفرات لكنّه لم يستطع اتخاذ القرار بذلك، خانته إرادته، تقدّم نحو الباب، وضع يده بمحاذاة خدّه، فردت السلام وقد همّت بالوقوف.

رفع نظره يتأمل سقف الغرفة، يفكر بما يريد قوله، حاول أن يستفتح اللقاء بكلمات جديدة، تبعثرت كلّ الكلمات، طغى حضورها على ذهنه، استرق النظر إليها فضبطته متلبساً لم تخفض نظرها، بل هزت رأسها بابتسامة ماكرة، كأنها تسأله عمّا وراء تلك النظرة.

انتابه الحرج، أشاح بنظره، كأنه قد خشي أن تلومه، أو تعاتبه فشخصيّتها القوية، ونظرتها المتوقدة، وقوة منطقها جعلاه يتردد ملياً في البوح بما يجول بما في نفسه.

شعر بأحاسيس متناقضة عندما دخل أيمن، رأى فيه المنقذ من مأزق صمته الذي اسبطر على روحه قسرياً ووشكان ما أحسّ بوطأة الزّيارة التي أبطلت بوحه المزمع وهو يدرك في قرارة نفسه أنّه لن يرى النور. فانبرى أيمن ليضفي بعض الحركة على سكون الغرفة:

- **اليوم الأخبار ما تسر يا جماعة.**
- **من يوم بلشت الثورة، والأخبار كارثية، حرب غير متكافئة، إبادة عنصرية، طائفية بامتياز.**

تغلغلت كلماتها إلى قلبه حاصرته بحضورها الآسر، عندما تنطق بما يجول في نفسه، فتسبقه لقول ما يريد، لكن أيمن لم يترك له الفرصة، صار يجادل يصوب حيناً ويقيّم حيناً، في حين كان عبد الرحمن مأخوذاً بعوالم أخرى تتجاذبه ثورتا الحبّ و الحرية.

❁ ❁ ❁

تصوّر جاسم نفسه ربيطة تجرّ إلى حتفها، عندما سحبه العريف فائق من جلسة التعذيب كتلة لحم هامدة، يلتقط أنفاسه بصعوبة، أحس بحناياه تطبق على رئتيه وقلبه. كان يعاني اختناقاً شديداً، لأنّه لم يتناول دواءه منذ أن اعتقل. توسلاته المتكررة لهم بجلب الدّواء على حسابه، ذهبت سدى، الطّبيب الذي أدخل المعتقل ليعالجه لم يزد فعله عن فعل السجانين والمحققين صرخ بوجهه مراراً وتكراراً:

- **لا تتمارض يا ابن الكلب!! أنت بمعتقل مو بفندق خمس نجوم!! هذه الأساليب نعرفها تماماً، خارج الزنزانة تريد إسقاطنا وهنا تريد علاجاً يا ابن الشرموطة، والله لأخليك تتفعن بالزنزانة، وتدوّد، ولن تحصل على الدّواء ولو كان شربة ماء.**

تلتها لطمة قويه بظاهر اليد على أنفه، سال دمه غزيراً، لم تحل حالته المتردية من إجراء تحقيقات متوالية، وجلسات تعذيب مبتكرة كان آخرها جلسة اليوم التي أسلمته إلى هذه الحالة البائسة، طافت بخياله صور الأولاد وزوجته، ولوحات لمي يطغى عليها اللون الأرجواني القانئ، كان شريط الصور ضبابياً، وغائماً تبدت الشخصيات أشباحاً تتحرك في هالة من سديم. نسيس الفرح الوحيد الذي نازع حزنه ما عاوده من التذكر، حين

يخـرج مـن غرفـة الضـيوف بعـد أن ينهـي اسـتعراض الفيسـبوك في سـاعة متـأخرة، يـدخل غرفـة نـوم الأولاد يقبـل وجنـاتهم يـردّ أغطيـتهم عـلى أجسادهم الغضة، يرقد بجانب زوجته، يقبل خدّها يمدّ يـده فوقهـا، يربـت على جسد يزيد الصغير الذي يشـاركهما الفـراش، يمسـح بيـده عـلى صـدره الغضّ الغرير، يقبضُ برفق ونشوة على أجزاء من جسده، تستقر يـده فـوق الصدر، يشعر بدقات قلبه الناعمة كنبضات قلب عصفور في يد طفل.

أحسّ بالزنزانة تضيق، تكاد تطبق عليه، ينعـدم الهـواء تـدريجياً، تـزداد العتمة لتقلّص مجال الرؤية الصـغير، سرى الخـدر الثقيـل بكامـل جسـده، حاول أن يتحرك، دونْ جدوى، ثمة مـا يثقـل كاهلـه، ويعيـق حركـة أطرافـه كليةً، تساقطت قطرات عرق باردة من جبينه، انزلقت فـوق وجهـه، كانـت جبهته تنزّ عرقاً غزيراً لم يستطع أن يرفع يده ليبعده عن عينيـه، هـمّ يركـل الباب بقدميه، لم تطاوعه قدماه مطلقاً، فقد استولى عليهما جمـود وسـكونْ يشبه الشّلل الكامل، كأن جسده يتحول الى تمثال حجر صلد.

عندما تداعت إلى مسامعه أصوات جلبـة، ووقـع أقـدام، شـعر بخـلاص يدنو، يقترب قليلاً ليعيـده إلى الحيـاة، تعالـت الجلبـة، تحولـت إلى خلخلـة وطقطقة على باب زنزانته، انزلق المزلاج بقوة فسرت نشوة فرح في جسـده، انفتح الباب، دخلت نسمة هـواء ضـعيفة، تنسـم بعضـها بصـعوبة، اقـترب فائق منه قرفص بجانب رأسه، تلمّس جبينه، عنقه، حرك يديه، نهض تحـرك خطوة ثمّ عاد ثانية مقترباً من رأسه وهو يتنهد ويزفر.

❁ ❁ ❁

وصل الشيخ عبود متأخراً، أتم صـلاته بعـد أن سـلّم الإمـام، أتبعهـا بركعتي سنة بعدية، تلمّس الأرض بيديه حتى وجد عصاه، نهض بقامتـه

الكبيرة يتخبط، ولم يكد يمشي خطوتين حتى استوقفته يد قبضت على عضده بقوة:

- **شيخ عبود!! خليني أوصلك.**

تجمد عبود للحظة، ليربط الصوت الذي سمعه بصورة الشخصية المتخيلة بذهنه، وعندما عرف أنه صوت عدنان الذي التحق مع ابنه محمود بالجيش الحر استدار إليه احتضنه بلهفة وقال ممازحاً:

- **أكيد تريد أوصلك للبيت، أنتم الشباب معمي على قلوبكم من النصب والجهلة[٨٥].**
- **محمود.!! استشهد.**

بجم الشيخ عبود للحظة، وقد تجمد الدم في عروقه، سرت قشعريرة قوية في جسده، أحس بجسده يثقل يكاد يتهاوى، تسعرت النيران في جواه، تعالى شؤبوبها ليلظي صدره وقلبه ويصليه ثم يذروه رماداً. وضع يده على كاهل عدنان، لسيتند إليه، أمسك عدنان يده برفق، أجلسه على قارعة الطريق الترابية التي يقطعها يومياً إلى بيته، حدثه عن استشهاد محمود الذي كان مع رفاقه في محاولة لإنقاذ بعض المصابين من الأطفال الذي انهارت عليهم بناية طابقية نتيجة القصف بالطائرات الحربية وقف محمود بغتة حين رميت قنبلة دفاعية من داخل الدبابة باتجاه البناء الذي هم فيه صرخ محمود مزمجرًا ليبتعد الجميع، صاح بأعلى صوته مكبراً وهو يلقي بنفسه في الهواء ليسقط فوقها احتضن الرمانة اليدوية التي انفجرت لتحوله مزقاً وأشلاء.

- **كنت موصيه يسلم لي ع الرسول صلى الله عليه وسلم إن شاء الله ما يكون نسى.**

---

[٨٥] الجهلة: والنصب : الهوى والغرام.

مسح عينيه البيضاوين وأجهش ببكاء مريرحتى اخضوضلت لحيته انسل عدنان بهدوء وهو يرقأ دمعات ترقرقت من عينيه، متجها نحو الطريق الرئيسي دون أن يمر ببيت أهله.

۞ ۞ ۞

داس بحذائه الضخم على عنقه ببطء، زاد من قوة ضغط قدمه على حلقه، حشرج قليلاً، اختلج، كاد يلفظ أنفاسه الأخيرة لولا أنه تداركه ورفع قدمه قليلاً شهق جاسم شهقة قوية، ليسحب بعض الهواء إلى صدره، لم يكن قادراً على الشهيق ثانية، لأنّه عاد يضغط على عنقه بقوة أشد، أحس فائق بنشوة تسري في جسده تحسس عضوه الذي بدا ينتصب ببطء، زمّ شفتيه رفع رأسه إلى الأعلى وخاطب جاسم دون أن ينظر إليه:

- **بدك تموت يا طيزي ؟! هون الحياة والموت بايدنا، نحنا بنوزع صكوك الموت والغفران، مع إني أبعرف شو هالحكي الفاضي بس هيك بسمع الشباب بيحكو المهم إذا كان ربك بيقدر يخلصك منا، ادعيه لأشوف؟ ربنا نحنا بيحيي وبيموّت وإذا بتوعدني انك تهتف باسمه وتشيل صورته رح اعفي عنك. بدكن حرية يا ولاد الكلب؟! عايشين ببلد المعلم آكلين شاربين وموظفين ومع هيك بتثوروا علينا، بعد ما عملناكم بشر، ولك روح شوف العبيد بغير مكان، رد يا أستاذ جاسم، رد إذا فيك .**

كان جاسم مأخوذاً بعذاباته، واختناقه، أفرد سبابته اليمنى عن بقية أصابعه، انتبه فائق داس برجله الأخرى على سبابته حتى سمع طقطقة عظام إصبعه تتكسر تحت أظفار حذائه العسكري، لم يتحرك جاسم، لم يتأوه لم يشعر بشيء، ارتسمت ابتسامة صغيرة على محياه، زادت جنون فائق أكثر، جحظت عيناه، توسعت حدقتاه ضغط على

حلقه بقوة أكبر، وضع حمل جسده الضخم على ذات الرجل، تكسرت تفاحة آدم كبيضة طائر تحت وقع القدم، أحمر وجهه ازداد جحوظا، مال رأسه بقوة نحو جانبه الأيسر، ارتطم جانب خدّه بالأرض، سال الدم الأحمر القاني على أرض الزنزانة.

شعر فائق بنشوة عارمة تجتاح كيانه وضع يده على محاشمه تحسس عضوه الصغير فوجده منتصباً بشدة غادر نحو زنزانة مجاورة، أرخى زمّام بنطاله المنزلق ودخل كوحش أسطوري والبخر يفوح من فمه كجيفة قبر .



حاولت إنهاء الموضوع بردّ قاطع، تعللت بترك مهنة الصحافة، أخبرت المتصلة أنّها قطعت كلّ ارتباط بالجريدة وأعطتها أسماء صحفيين آخرين، قد يفيدونها فيما تريد لكنّ توسلاتها أرغمتها على الاستجابة لطلبها لكتابة موضوع عن ابنتها البكر التي أنجبت خمس توائم في أول بطن وهي تتمنى أن يكتب عنها في الصحف بقلمها. أصرت على الرفض والتعنت بحزم لكنها تراجعت عندما سمعت نشيج المرأة التي انتحبت لأنّها كانت تتمنى أن تكتب توق عنها لأنّها سمعت عنها من الناس وأنها صحفية حميدة السمعة والصيت.

وجدت توق نفسها محاصرة بين رغبة الانقطاع، واستجداء المرأة العجوز، بعد أن أغلقت الخط، شعرت بندم كبير، لأنّها لم تستمر في تعنّتها ورفضها، لم تعرف ما لذي دفعها لقبول طلبها، والاستجابة لها أكان الأمر رغبة دفينة في الانصياع لهاجس داخلي.؟!! يفرضه سحر هذه المهنة التي لم تستطع مغادرة بلاطها، على الرغم من قراراتها الظاهرية، بهجرها، أم كان انتقاماً من سلطة الأب، وتسلطه، وهو يحاول أن يبعدها عن أهوال هذه المهنة التي لم تعجبه أصلاً، لكنه وافق على

عملها بها ليبعدها عن العودة إلى دمشق وعن ميدان التمثيل الذي أولعت به وأحبته، لم تحاول أن تناقش الموضوع بينها وبين نفسها، خشيت أن تكتشف أن قرارها بترك الصّحافة، مجرد قرار لا يتجاوز فعل اللسان، وأنّها في أعماقها ترفض هذه القطيعة، لا تريد أن تجد نفسها بدون العمل الصحفي الذي يعني لها الكثير على رغم تحفظاتها عليه، تجاوزت الأمر، أخذت العنوان من المرأة العجوز، حملت حقيبتها، وآلة التصوير الصغيرة، طلبت أذناً لساعة، اجتازت الشوارع الفرعية بسيارة الأجرة، ترجّلت من السيارة، سارت للحظات لتجد البيت الذي أرشدتها إليه المرأة العجوز، واضحاً تعلوه شجرة سرو كبيرة تبدو من بعيد، لون الباب المميز جعلها توقن أنّه المقصود بالذات، نقرت الباب، فتحته امرأة خمسينية، حادة النظرة، نحيلة الجسد، لا تشبه الصورة التي رسمتها لها مطلقاً، لم ينشرح صدرها لرؤيتها، أقلقها تبرجها الفاضح، حاجباها المرفوعان عالياً، الظل الأخضر المرسوم حول عينيها طريقة لبسها، هيئتها التي لا تنم عن امرأة بسيطة تقطن هذا البيت المتواضع، ثارت شكوكها، لكنها حاولت إبعاد هواجس الشكوك كيلا تتعب نفسها أكثر، جلست في غرفة صغيرة تراقب سلوع الجدران، والآثار التي تركتها مياه المطر المتسربة من السقف على الحائط الخلفي للغرفة، جلست المرأة بقربها معرِّفة بنفسها فبادرت توق:

- **أنا مستعجلة يا ريت شوف بنتك والتوائم معي ساعة بس.**

ردت المرأة بابتسامة لم تفهم توق مغزاها:

- **لحظة بس البنت تجهز نفسها، نشرب كاس عصير وبعدين تباشري شغل.**

عادت المرأة بعد قليل وهي تحمل كأس عصير، وضعت الصينية أمامها، رفعت الكأس بوجه توق التي أخذته مستغربة حركة يدها،

وضعت الكأس على طاولة صغيرة بجانبها، أخرجت آلة التصوير ضبطت إعداداتها لتناسب التصوير الداخلي.

- **اشربي كأسك يا بنتي.**
- **شكرا شربت كتير قهوة.**
- **اسمعي يا ابنتي نحنا فقرا صحيح، بس نظاف، بعدين هذا شراب طبيعي، شغل البيت.**
- **استغفر الله ما قصدت تكرمي، رح أشرب.**

تناولت الكأس حست منه رشفات على عجل والمرأة تراقبها بابتسامة طفيفة تعلو محياها، ثمّ سرعان ما غادرت الغرفة، وغابت للحظات، شعرت بها توق طويلة جداً، تثاءبت عدة مرات، أحست بنعاس شديد يكاد يطبق جفنيها، نفضت رأسها لتطرد هذا الهاجس، شعرت بثقل في عينيها، وأطرافها، قامت ذرعت الغرفة ذهاباً، وإياباً، لم يغادرها شعور النعاس الثقيل، غامت الأشياء حولها، تبدت بظلال تلفها كأنّ أشباحاً تتراقص أمام عينيها، أحسّت بثقل جسدها وصعوبة حركة أطرافها فجلست، فتح الباب على مصراعيه، لم تتيقن من هيئة الداخل الذي بدا ظلاً متماوجاً يتراقص في الفضاء ومن خلفه جثة رجل رَبع القامة، تداعت بثقل جسدها على المقعد الصغير مترنحة، وهي تراقب شبحي الظلين يقتربان منها شيئاً فشيئاً، شعرت بيد قوية القبضة تطبق على فكّها، تكاد تهصر وجهها، أحست باليد تنزل، تدنو من صدرها، تهصر نهديها بقوة، وقد تعالت قهقهة ملأت الفضاء الذي غابت عنه كلية.

❖ ❖ ❖

عندما استيقظ محمد متأخراً عن موعده لم يشأ الذهاب للعيادة، هاتف الممرضة، أخبرها بأن تصرف المرضى، بذريعة سفر طارئ، عندما

تأكد أن لا حالة طارئة تستدعي مروره، خابر المستشفى طالباً تسجيله في إجازة إدارية. تناول فنجان قهوة وسيجارتين على غير عادته في التدخين قبل تناول الفطور، أراد المكوث في البيت والاختلاء بنفسه، لكنه وجد نفسه سئما من كل شيء، كل شيء في البيت يذكره بأسعد الغائب عن عينيه، رائحته تملأ المكان عبقاً يتغلغل في خياشيمه يتضوع عطراً في رئتيه، ألعابه المتناثرة، ثيابه الملقاة في أمكنة متفرقة والتي كان يخرجها يشتمها يضمها بحرقة وحزن، سريره الصغير، صوره الملائكية التي ازدان البيت بها فوق الخزائن في زوايا البيت فوق التلفاز، فتح البراد أخذ جرعة ماء تناول حبة مسكن ألم لصداعه الذي كاد يقسم رأسه نصفين أتبعها بحسوة ماء، غادر دون أن يقرر وجهة يذهب إليها، هام على وجهه يضرب في الطرقات، انحرف نحو القسم الغربي للمدينة حيث الطريق تخلو من السيارات أوقف السيارة على ناصية الطريق، أراد أن يسير على قدميه منحدراً نحو البحيرة لكنّه تراجع عاد نحو السيارة، سار بها بهدوء وجد نفسه يقف دون أن يدري أمام المصلحة. دهمه قلق وهو يدخل البناء الصغير، كان عبد الرحمن يهم بمغادرة المصلحة بعد زيارة قصيرة متخوفاً من أن يبعث المدير بطلبه ليسأله عما فعل حيال عودته للعمل عندما التقى محمد تعانقا بحرارة أبعده عنه قليلا وهو يمسكه من عضديه ناظراً إليه بشوق وسعادة وقال:

- **ما شاء الله صحتك عال.**
- **الشباب الطيبة غذونا بالبرغل المخلوط حصى ورمل.**

عندما جلس محمد منهك القوى ظلّ شارداً لوهلة يحدق بجدران المكتب وسقفه، فحاول عبد الرحمن كسر طوق الصمت ليعرفه بعائشة فابتسم ابتسامته المعهودة وضحكته الطفيفة التي تمازج كلامه، أخبره أنهما صديقان قديمان منذ سنوات، وإنها صديقة المرحومة جيداء

زوجته السابقة. حدق به عبد الرحمن باستغراب عندما نعت زوجته بالمرحومة والسابقة فضحك بفتور وقال:

- **المرحومة معنويا سأحكي لك التفاصيل فيما بعد.**

ربت على يد عبد الرحمن وغادر مودعاً الجميع، تداعى إلى مخيلته شريط صور لأسعد وهو يلعب، يرقص يتحدث، يلاعب دماه، يركض طوراً، يقفز أطواراً، صور من أحداث أيام منفصلة تجمعت في شريط واحد، ترقرقت عيناه بالدموع، أخذ منديلاً ورقياً من صندوق السيارة الأمامي، مسح دموعه ليجلو الرؤية أمامه، وهو يقود السيارة مسرعاً توقف أمام البيت ترجل على عجل، مشى مسرعاً، قرع الباب بنزق، وقوة، استمر يضغط الجرس بيده رغم الصيحات المتوالية من الداخل" يا الله يا الله" وقفت جيداء صالحة متجمدة في آخر الممر بقامتها النحيلة الفارعة تراقب أسعد الذي تطاول وفتح الباب، بزغ وجه أسعد القمري، المدور كقرص حليب، أفرد ذراعيه بعيداً ليحتضنه، لكن أسعد تراجع القهقرى، هرع إلى التمسك بثوبها، تبعها وهي تقترب من الباب، أخفى جسده خلف ساقيها، ومطّ عنقه قليلاً، ليسترق النظر إليه، كأنه لا يعرفه أبداً، اقترب محمد مدّ يده مشّ شعره بحنان، لم يحاول أن يرغمه على عناقه داعب خديه وهو يبستم دامع العينين وعندما شعر بهدأة روعته، جرّه إليه برفق، سحبه إلى صدره، ضمه بحنان، تمنى للحظة لو يستطيع أن يقحمه بصدره ليرتوي منه، أهرق قبلات على وجهه، وجبهته، وشعره، تحسس جسده، ظهره الصغير، أضلاعه، يبعده حيناً يتفرس في معالمه، ثمّ لا يلبث أن يسحبه بقوة ليضمه ثانية، لم يتركه حتى شعر به يتململ يريد الخلاص، والعودة إلى أمه، وقف ثانية لم ينطق بكلمة، غادر وهو ينظر خلفه نحو أسعد الذي عاد يخفي

جسده خلف أمه وهو يمد عنقه كفرخ طائر صغير لينظر إليه، توقف قبيل باب سيارته بقليل نظر إلى جيداء للحظة صامتاً ثمّ قال:

- **طلبك قيد التنفيذ.**

ثم قاد سيارته مبتعداً حتى اختفى رويداً، رويداً.

۞ ۞ ۞

افترق جفناها عن عينيها بهدوء، وتكاسل، فتراقص الغبش، والصور، الضبابية في مجال رؤيتها، جالت بنظرها في الجهات كافة، بحركة كسولة، أحست بثقل في رأسها، وأطرافها التي لم تستجب لها استجابة سريعة، وكاملة. الشعور بالثقل انسحب على كلّ أعضائها، جفونها، أطرافها، شفتيها، لسانها. بلعت ريقها مرات، أخرجت لسانها بهدوء، أمرّته على شفتيها الجافتين، غير مرّة، بدأت الأشياء تتوضح ببطء شديد مرّ الزمن وكأنّ قطاراً يهصر روحها، ظهرت معالم هيئة رجل ضخم المعالم وهي تنظر إليه مستلقية، تجاوره هيئة لم تتيقن منها، كانت أقل طولاً وأنحف بكثير، حاولت الوقوف عند المشهد الضبابي، لم تستطع فهم موقعها ضمنه، لم تستقر صورة الأشخاص المبهمة، عندما أخذ شعور الوهن، والإعياء، والخدر يزول قليلاً. تذكرت جزءاً مما حدث، توضحت معالم الشبحين. أحست بالهواء يلفح صدرها، وجسدها، وبالشرشف يلامس جسدها مباشرة، توضحت الفكرة في رأسها قليلاً، زاد هذا من تلاشي شعور الخدر، والإعياء. أنهضت رأسها بصعوبة لتكتشف عري جسدها، وصدرها غطت ثدييها بيديها بحركة لاشعورية، تزحزحت ساحبة جسمها للوراء قليلاً، أسندت ظهرها إلى الحائط لم يكن ثمة ما يستر جسدها الغض الغرير، وعلى مقربة منها تكدست ثيابها الداخلية، تعلوها حمالة نهديها البيضاء. لامست أطراف الشرشف الذي تنام عليه، حاولت رفعه بوهن لم تستطع جلبه، ليلف جسدها في المرة الأولى، أرخت أطرافه على منطقتها الوسطى، أعادت يديها إلى نهديها اللذين بدأا

يرتجان كفرخي حمام تتعالى حلمتيهما كمنقاري طيرين يبحثان عمن يـزقهما. رفعت بصرها، كانت المرأة العجوز تنظر إليها نظـرة لا تـنم عـن ارتيـاح، وقـد ارتسمت ابتسامة خبيثة على وجهها وشكري يقف كغول يمسك بيديه هاتفـه المحمـول، مركـزاً عـلى جسـدها، يميـل زاويتهـا ليلـتقط معـالم الجسـد جيئـة ورواحاً، ومن وراء العدسة كانت عينـاه توصوصـان تلـتهمان معـالم جسـدها، وقد سال لعابه كذئب ضار.

حاولت أن تتكلم أحست بلسانها ثقيلاً لا يستجيب لرغبتها بـالكلام والحركة تصاعدت ضربات قلبها بشدة شهقت بقوة أتبعتها بـزفير قـوي تلاحقت أنفاسها، وهي تنهت، وتتـنفس بصـعوبة، كأنهـا تعـاني اختناقـاً سمعته يقول وهو يقهقه:

– **الطبقة ٢٠١٢/٥/٢٥ الصحفية توق عطا الله في تغطيـة صـحفية هامة.**

أبعد آلة التصوير عن عينيه، حرك رأسه بمكر، وهـو يضـحك التفـت إلى العجوز بقربه، رفعا يديهما في الهواء اصطفقت اليدان، فصدر عنهما صوت حاد أجفلها، تململـت قلـيلاً، اسـتمدت مـا اسـتطاعت مـن طاقـة مخمّدة وقالت بتلعثم:

– **اش عملتوا فيني يا مجرمين.؟!**

قالت العجوز بمكر وهي تقهقه:

– **عصفور زار عشه.**

قهقه شكري بصوت عالٍ، وقال وهو يطوق العجوز بيده:

– **خدمة ما رح أنساها.**

– **ولو نحنا بدنا نخدم الحكومة، بـدها تسـقط النظـام.؟؟! خليهـا أول شي تسقط...**



قرَّر عبد الرحمن ألا يغادر البيت مطلقا مقاومة رغبته الجارحة وشوقه الجارف لرؤيتها، أطفا الحاسوب وجلس في زاوية الغرفة يطالع الحب في زمن الكوليرا التي تفلتت تفاصيلها منه لأن إيناس كانت تنازع عائشة حضورها وهيمنتها على ذاكرته تقفز بين السطور تشاركه القراءة فقد كانت آخر هداياها له، أخذ هاتفه المحمول خابرها ففاجأه صوتها الذي فاض فرحاً بمخابرته، عاتبها بشدة لأنها لم تتصل به بعد خروجه فتعذرت واختلقت أسباب لم تقنعه، عبر لها عن سعادته بالأحداث الجارية التي شملت مدنا ومحافظات كثيرة فاستفزتها لغته وفرحته الغامرة دخل معها في سجال حول الأحداث الجارية كلٌّ يحاول سحب البساط لجانبه معتبراً الطرف الآخر المسبب لما يجري من خراب ودمار وقتل ومذابح، اتسعت الهوة أكثر شعر بالندم لإقدامه على الحديث معها لأنَه اعتبر أنّ مكالمته قد زادت رصيد خسائره في نفسه. لكنه اعترف لنفسه بعد هدأته أنّه أراد أن يثير الكراهية لها في نفسه كيلا تنازع عائشة على عرش قلبه.أحسّ أنّ جذور حبها مازالت راسخة في طيات نفسه وأنّ أي امرأة لن تمحو آثار أقدامها وهي تمشي في متاهات قلبه كما كان يقول لها عندما يستمعان لأغنية كاظم حافية القدمين.

عندما خرج يضرب على وجهه في الطرقات لم يكن يقصد الذهاب إلى المصلحة التي وصلها بعد أن عاند رغبته كثيراً خشي من الشعور بالندم بعد أن يدخل لكن لهفة عائشة التي تقدمت لاستقباله بفرح وشوق جعلاه يحمد حضوره بعد أن اطمأن أنّ رئيس المصلحة لم يكن هناك فقد غادر إلى الرقة لاجتماع طارئ.

أمعن النظر فيها ملياً وهي مطرقة تفرك يديها حيناً تلعب بجهاز الهاتف حيناً وهو ينتظر أن تبدأ بحديث خمّن أنّه على غاية من الأهمية أكده ارتباكها شرودها فبادر بسؤالها:

- **حاس أنو عندچ حكي مهم.**

أومأت برأسها صمتت للحظة تستجمع كلماتها وسردت له القصة التي روتها الجدة والتي أغفلت كثيراً من التفاصيل حول معاناة والدها وما يكتنفها من أسرار ولأول مرة عرجت على معاناة والدتها مع صلال، ولم يكن ذاك ليدفعها يوما للحديث عن هذا الأمر، أو البوح به لولا ما استجد من شكوك حول موت أبيها، أعطت عبد الرحمن صورته واسمه الكامل وكل التفاصيل التي تعرفها ليسأل عنه السجناء السياسيين الذي كانوا مع أبيها وأفرج عنهم بعد سنوات من الاعتقال.

❖ ❖ ❖

فتحت مي الباب وهي تسند رأسها إليه، كان محمد يقف منتصباً وقد تقبضت معالم وجهه وبدا عليه الكدر والأسى، أشارت له برأسها فدخل يجر جسده المضنى بتثاقل، وعندما وصل الصالون فوجئ بوجود توق التي اتخذت مكاناً قصياً من الكنبة، بدت ذابلة متغضنة الوجه، ألقى التحية بفتور. حيته دون أن ترفع نظرها إليه، بصوت منكسر حزين كأنه يخرج من تمثال شمع أجوف.

- **يبدو اتفاق نسائي ضدي.؟!**
- **مو اتفاق بس لقاء لا بد منه.**
- **خير إن شاء الله!!.**

وجدت مي نفسها تتابع منظريهما، تستقرئ الوجوه تحاول فهم ما يجري حولها، كانت تعرف أن ما تعانيه توق سببه رجل ولكنها تاهت بينهما وتساءلت في نفسها أي الرجلين يسبب لها كل هذا الحزن محمد أم شكري أم كلاهما معاً.؟! كانت تجهل عمق مأساتها، وقد باءت بالإخفاق محاولاتها باستجلاء الموضوع وفهم ما يعتريها منذ أيام.

- **المكيرفون مع توق، القهوة سادة، كالعادة طبعاً، خدوا راحتكن، بس مو كتير...ههههههه.**

خيّم الوجوم والحزن، تكورت توق على نفسـها أكـثر، كقنفـذ صـغير بـدت جثـة هامـدة، أطرقـت بنظـرة طويلـة إلى الأرض دون أن تـرمش، وهي تتنفس بصعوبة، كأنها تعاني اختناقا شديداً.

عندما عادت مي تحمل الصينية استغربت وجومها العميق، خمنت إنهما لم ينبسا ببنت شفة، منذ غيابها الذي تقصّدت أن يطول، لتترك لهـا المجال لتبوح له بما جال في نفسها، لم تخبره ما حدث لها في بيـت المـرأة العجوز واكتفت بالقول إنها تعرضت لمؤامرة دنيئة وصمتت وهو يرقبها صامتاً.

وضعت فناجين القهـوة، جلسـت بقـرب تـوق لفّتهـا بيـدها أمالـت رأسها إلى صدرها، قبّلت رأسها بحنو، وهي تضغط عليها بحنان التفتـت إليه وقالت:

- **توق تريد أن ...**

رفع يـده فصـمتت مـي مسـتغربة تصرفـه المباغـت الـذي فاجأهـا، تمالكت نفسها دارت خجلها من تصرفه بضحكة مصطنعة وهي ترنو إلى توق الغارقة في سحابة حزنها العميق.

- **خلينا نسمع منها، الآنسة صحفية يعني لسانها يفري فري.**

أجهشت توق ببكاء مرير وقد أخفت رأسها خلـف ظهـر مـي التـي نظرت إليه شزراً كأنها تحاول الانتقام من تصرفه القاسي معها قبل قليـل وشعورها بالمهانة لحركة يده التي رفعها في وجههـا، قالـت وهـي تصـعر خدها عنه فجأة:

- **محمد طول بالك .**
- **ليش كذبت علي.؟! ليش ما خبرتني أنه عنصر أمن شو العلاقـة بينها وبينو؟!**

- **خافت. محمد لا تكون أرعن كالعـادة، مـا في شي بينهـا وبينـه، الموضوع إنه كان يلاحقها بدو إياها تكون جاسوسة علينا وبدو منها....**
- **علاقة.؟!**
- **بس هي رفضت خافت تتصادم معه، وأنت بتعرف شو ممكـن يعمل عنصر أمن ببلدنا، مع بنت ما لها سند.**

أخذ نفساً عميقاً دفع نفسه إلى الوراء قليلاً شعر، بارتياح كبير وبهم ينزاح عن صدره، عندما تلاشت شكوكه التي غذّتها فترة صمتها وغيابهـا، خشي أن تنسـاق وراء ألاعيـبهم لتكـون عينـاً لهـم عليـه وعـلى صـحبه. ذهبت به الظنون لوجود علاقة بيـنهما، أرّث سـيجارة ثـمّ أطفأهـا عـلى عجل قبل أن ينهيها في فنجان القهوة، نهض ببطء، تقدم منها أشـار لمـي فابتعـدت، جلـس عـلى الطـرف الآخـر للكنبـة، وهـو يرمقهـا بصـمت مستغرباً حالتها المزرية وهي تتكـور عـلى نفسـها تـنكمش كلـما اقـترب قليلاً، كأنّها تذوب، تـتلاشى، يـزداد رجفانهـا وارتباكهـا وتوترهـا. تزحـزح مقترباً أكثر. التصقت بمسند الكنبة انحشرت في زاويتها وهي تنظـر إليـه شزراً، حاول تهدئتها وهو يقترب بهوادة:

- **أنا أعتذر، أعتذر بشدة كان على أن أسمعك، ولكـن لم تـتركي لي الفرصة.**

حشرجت، قالت بصوت مغمغم متلعثمة:

- **حاولت لكن...**

أجهشت بالبكاء ثانية، دنا قليلاً، ربت على كتفيهـا، وهـو يحـاول أن يبحث عن كلمات يهدئ من روعها، انتفضت مرتعدة، وقفت فجأة وقد تملكتها رهبة وقشعريرة، حملت حقيبة يدها، خرجت مهرولة، صـفقت الباب بقوة، أذهلته ردّة فعلهـا، وضـع رأسـه بـين يديـه مطرقـاً، يتأمـل،

يبحث عن سبب مقنع لم يجد، وحين أعيته الحيلة، عزا ذلك لاضطرابات الدّورة الشهرية ليهرب من التفكير بالموضوع مؤقتاً.

❁ ❁ ❁

وقف عبد الرحمن يدخّن سيجارته في ساحة الانطلاق منتظراً حميد الذي فاجأه بالاتصال وطلب إليه انتظاره للسفر إلى الرقة دون أن يوضح الأسباب. عندما ربت حميد على كتفه ارتعد عبد الرحمن هلعاً، وقد كان يراقب دورية مرّت من جانبه بسيارة مكشوفة اعتلى ظهرها بعض المجندين وقد تمترس أحدهم خلف رشاش آلي ثبّت على ظهر السيارة. استقرا في المقعد الخلفي ينتظران اكتمال ركاب السيارة، فاقترب حميد وهمس بإذنه.

- **اتصل بي صالح السعيد وقال انو يستنانا اليوم بالمكان اللي تعرفه أكيد يخططون لعملية جديدة، وحاسبين حسابنا معاهم!!.**

رمقه عبد الرحمن بنظرة عتب حادة لأنه لم يخبره أن سراح صالح قد أطلق فمط شفتيه ورفع كتفيه إلى الأعلى وأشار بسبابته إلى رأسه وقال:

- **خليها على ربك، شي ينسّي الواحد حليب أمه.**

أمال عبد الرحمن رأسه يمنة ويسرة بعتب، وتابع صمته ملتفتاً إلى الطريق المنحدر نحو الانطلاق، وقد بدأ توافد الناس نحوه قاصدين السفر، يضربون في أصقاع الأرض. أخذ نفساً عميقاً ملأ رئتيه بالهواء، أسند رأسه إلى الخلف أكثر متناوماً، وقد ارتسمت على شفتيه ابتسامة صغيرة وهو يتصور نفسه في بزة عسكرية حاملاً على كتف قاذفاً وبجانبه حميد مطلقاً سيل رشقات نارية على جنود النظام وزبانيته، مستغرباً تحول موقف حميد الذي كان يحاول حتى فترة قريبة إقناع الآخرين بضرورة اللجوء إلى الحل السلمي للتغير.

تفرس في معالم حميد الذي بدا أكبر من عمره بعشر سنين كأنه اجتاز عتبات الخمسين، جثته الضخمة وأنفه الأفطس العريض ولحيته الطويلة التي لم يحلقها منذ أمد جعلته يبدو عجوزا هرماً، لكن لياقته وقوته البدنية ظلت كما هي، يداه المعروقتان القويتان تثيران الرعب والخوف، فقد اعتاد منذ سنوات أن يستيقظ باكراً يصلي الصبح في جماعة يمارس رياضة الجري لنصف ساعة حتى يصل الفرات ويغوص في النهر سابحاً حتى يدركه الوهن.

نظر عبد الرحمن نحو الأفق البعيد وقد تقلص شعور اليأس الذي هيمن عليه في الأيام القليلة الماضية وهو يشاهد النظام يحصد الأرواح، دون ظهور بوادر تبعث على الشعور بالأمل بنصر أو تنح وشيك. المظاهرات التي كانت حالة عظيمة في نظره فقدت ألقها لأنها مجدية في حالات الأنظمة الديمقراطية لكن الحالة هنا مختلفة فالنظام على استعداد لإبادة نصف البلد دون أن يفكر مجرد تفكير بالتنحي بل ودون أن يرمش طرفه.

اتخذ من كتف حميد متكأ له، يراقب الطريق الذي بات ينزلق نحو الخلف، والسيارة تلتهم المسافات نحو الشرق، فأسلمته وسنته إلى نوم عميق، لم يصحُ منه إلا بهزات متلاحقة من حميد عندما توقفت السيارة في انطلاق الرقة. توجها نحو المديرية لمراجعة الشؤون الإدارية حيث أصيب عبد الرحمن بحالة إحباط شديد، فقد ركن طلبه في الإدراج بأمر المحافظ الذي قال لهم: (**خلوا هالعرصة يتأدب لما يبطل المطالبة بإسقاط النظام بيرجع للعمل**).

حينها أشارعليه مدير الشؤون الإدارية بزيارة المحافظ لاستجدائه، نهره بقوة وقال(**رزقة من ورا النظام ما بدي إياها الرزق على الله**) خرجا مسرعين، قصدا مقهى صغيراً طلبا شاياً، جلسا يرقبان الداخلين والخارجين وعلى مقربة منهما استقر فتى في الثلاثين من عمره يعتمر قبعة خضراء

وقد تأبط صحيفة، طلب فنجان قهوة اكسبريس، ارتشـفه عـلى عجـل، تـرك الصحيفة على الطاولة، خرج بعـد أن ألقـى بـالنقود لصـاحب المقهـى، قـام حميد، أخذ الصحيفة متظاهراً بالقراءة، راح يفـتش فيهـا عـن الإشـارة التـي أخبره عنها صالح، انتقـل إلى الصـفحة الأخـيرة بحـث فـوق العمـود الثابـت المعنون بـ (وقال النهر) وجد رقـم جـوال صـالح مقلوبـاً ومنقـوص الـرقمين الأخيرين، درم الصحيفة، ضرب بها عضـد عبـد الـرحمن وهـو يـنهض، دفـع الحسـاب، انسـلا خارجـاً عـلى عجـل. كـان الفتـى يسـير بطمأنينـة دون أن يلتفت خلفه، تبعاه على مقربة دون النظر إليـه مبـاشرة، وهـما يتظـاهران بـالانهماك بمواضـيع أخـرى، يكركـران حينـاً، يتظـاهر حميـد بالتحـديق بالحسناوات ومتابعتهن حين يتجاوزنه وكان عبـد الـرحمن يـدرك تمامـا أنـه يغيب نظره يركز في أشياء بعيدة عن مفاتنهن كالحقائـب أو الأحذيـة وهـو يستغفر بقلبه. أما عبد الرحمن فقد كان يدقق في تفاصيل الجسـوم، تكـاد تنغرس نظراته في الأرداف والصدور، يعظ عـلى شـفتيه بشـبق كلـما بادلتـه احدهن النظرة. لـولا تركيـز حميـد عـلى الشـاب لفقـد أثـره لانهـماك عبـد الرحمن بحسناء سلبت لبه وهي تمـرّ بجانبـه تتبعهـا زوبعـة عطـر خفيـف تغلغلت إلى خياشيمه فأسرته وعندما تجاوزتـه كـاد يعـود أدراجـه ويتبعهـا لـولا أنّ حميـد قـبض عـلى زنـده بقـوة وجـرّه إليـه وهـو يقـول كـازّاً عـلى أسنانه:(**اتق الله يا رجل العين تزني واحنـا رايحـين لمهمـة عظيمـة خـلي الله يوفقنا بيها**) لحقا بالشاب وهـو يخـرج مـن شـارع إلى جـادة فرعيـة، ومـن زقاق إلى آخر حتى أوصلهما إلى زقـاق صـغير ينتهـي ببـاب وطـيء، توقـف استدار سار باتجاههما، مرّ بينهما وهو يشير بإبهامه المفرد دون أصابع يـده إلى الخلف باتجاه الباب الذي انفتح ببطء وقـد وقـف خلفـه صـالح فـارداً يديه لمعانقتهم:

- **يا حي الله النشامى.**

- **يا سيدي النظام قدم إلنا خدمة جليلة، خلانا نتعرف على بعض، ونتواصل، الثورة رح يكون أكبر أسباب نجاحها، بعد توفيق الله، غباء الأجهزة الأمنية.**

قال صالح ذلك وهو يشير بيده ليدخلا، كانت الغرفة صغيرة، وقد علق على جدارها علم الاستقلال وبعض منشورات الثورة وأسماء الشهداء وقائمة أخرى بأسماء أعوان الأمن والشبيحة وقد انهمكا بقراءة المنشورات والبحث عن أسماء يعرفانها أمسك عبد الرحمن قلماً وراح يضيف أسماء جديدة تكشفت عمالتها لأجهزة الأمن، ولم يكد يكمل حتى باغته صوت أجش من الخلف:

- **لا يهمّك كلو رح يجي دورو وحسابو.**

التفتا معا ليجدا ثلاثة أشخاص ملثمين يقفون خلفهم مباشرة لكن رابعاً دهمهم على عجل وصرخ:

- **انفضوا يا شباب في دوريتين جايات ع الحارة.**

❁ ❁ ❁

ذهبت محاولاتها سدى، لم تستطع النوم، إلا لماماً ظلت وسنى يؤرقها ما حدث، بدأ الجميع يلاحظون تغيرها المفاجئ نحولها، سهدها، سهرها المتواصل، شرودها، حزنها العميق الذي لا يغادرها أبدا.

حاولت الأم أن تستجلي الأمر، لكنها في كلّ مرّة لا تحظى بغير هزّة رأس، ووجوم طويل، وسرعان ما تنسحب تجرُّ أذيال الخيبة، يكللها قلق وخوف على ابنتها. حتى مرح الأثيرة على قلبها لم تستطع معرفة ما يقلقها لكن ذلك جعلها مركز اهتمام العائلة وهذا ما ضايقها من ناحية وأراحها من ناحية أخرى فقد تحاشوا التدخل في موضوع خروجها، وعودتها خوفاً من أن تزداد حالتها سوءاً.

عندما دقّت السّاعة الثانية ظهراً، أخذت هاتفها المحمول وحادثت محمد بصوت مخنوق، لينتظرها في العيادة، وقد تلقى خبر مجيئها بفرحة عارمة، فانفجرت باكية دون أن تستطيع كبح جماح رغبتها بالبكاء، أقفلت الخط على عجل مسحت دموعها، خرجت مسرعة. استقلت سيارة أجرة عابرة لتجد نفسها أمام باب العيادة مترددة بين الدخول والعودة. حزمت أمرها في تلك اللحظة وقررت مواجهة الأمر قبل أن ينزل كصيب من السماء على رأسها ورأس من حولها نقرت الباب برفق فنهض لاستقبالها بلهفة. ظلت واقفة للحظة لا تأتي بأية حركة أبداً، ثمّ خطت بعض خطوات مرتبكة نحو سرير الفحص، وقفت ساكنة، وقد خلفته وراءه لم تستطع النظر في عينيه، خشيت أن تفضحها عيناها، قبل أن يبوح لسانها، اقترب من باب العيادة اقفله بهدوء،دنا منها احتضنها من الخلف، ضمّك عليها بقوة تفلتت من يده وهي ترتعد متوترة فأثارت قوتها تلك استغرابه بدت له في تلك اللحظة كلبوة جريحة، ابتعد محاولاً فهم ما يجري، تراجع خطوات للخلف حتى اصطدم بالمقعد، جلس وهو يرقبها دهشاً.

تعالى نشيجها، شهقت وهي تحاول أخذ نفس عميق قبل أن تبدأ بالحديث كأنّها في حالة هذيان:

- **محمد، خليك بعيد أنا مو طايقة حالي.**

أحس بجملتها الأخيرة قاسية وقاتلة نفذت إلى قلبه لتخترقه بسهم نار حاول أن ينطق لم يستطع تحولت الأسئلة الملتهبة بقلبه وصدره إلى ذرّات رماد تذروها الريح لتتولد أسئلة جديدة من رحم الحالة التي رآها فيها بدت له كتلة من اللحم الذي نازعته الحياة على الروح فتشبثت على بقية صغيرة منها.أجهشت ببكاء مرير فكر بالاقتراب منها أكثر ليلفها بين ذراعيه فربثه[٨٦] الخوف من ردّة فعلها.

---

[٨٦] منعه.

- **بدي أحكيلك موضوع... موضوع خطير بس بتمنى تفهمني.**
- **ما دمت قد تركت الكلام بالفصحى، فالموضوع خطير!! أكيد، شغلت بالي هاتِ خير، خير!!**
- **أنا والله ما لي ذنب، الموضوع صار غصبن عني، والله أنا ما عرفت شو رح يصير.**
- **كلّ شيء وله حلّ.**
- **من كم يوم اتصلت فيني مرا وخبرتني إنها ...**

رن هاتفه الجوال فأفزعهما، أمسك الجهاز، تعكر وجهه وبدت معالم الحيرة والغضب عليه، رفض المكالمة ثم رنا إليها منصتا لتتابع حديث البوح الذي كان ينتظره بفارغ الصبر لكنها لم تكمل من حيث انتهت حتى تعالى الرنين ثانية ليقطع حديثها فقال بحدة واستغراب وهو ينظر إلى الرقم الوامض على الشاشة:

- **غريب بحياتها ما سوتها.؟! هي مرتي،قصدي اللي كانت مرتي، بدها تعرف شو صار بموضوع الطلاق، يبدو الست مستعجلة ع الطلاق.**

رن الهاتف للمرة الثالثة ففتح الخط ورد بنبرة زاجرة وبغضب:

- **نعم.؟! الموضوع على طا.........**

قاطعته باكية:

- **أسعد مات .**



بعد أن أخفق الاجتماع السابق والذي انفض على أثر مداهمة دوريات الأمن لاعتقال بعض الناشطين، عاد حميد وعبد الرحمن للرّقّة ثانية، حيث وصلا المكان المحدد مباشرة، فوجدا الملثمين قد سبقوهما.

وقد توسط الجلسة ملثم رابع ضخم خشن المعالم، تـدلت لحيتـه الكثـة من تحت اللثام، وقد تسلم مقاليد الكلام وتحدث بلغة فصحى:

- **علينا أن ننتقل إلى مرحلة جديدة كما اتفقنا سابقاً، لقـد شـكلنا سرايا للجيش الحر من إخوانكم المجاهدين الذي باعوا أنفسهم لله، وهم على أتم الاستعداد للموت دون أن تهتز لهـم شـعرة، ومع ذلك السريّة مطلوبة، نحن نعرفكم جيداً ولكن حرصاً على استمرار العمل لن نكشف هويتنا لكـما، وسـيظل صـالح صـلة الوصل بيننا، علينا أن نتقيد بالتعليمات، الحـراك الثـوري الـذي لقي إخفاقا ذريعاً في محافظتنـا، بعـد تلـك الوقفـة التظاهريـة العظيمة، يدفعنا لتغيير وجهة العمل إلى توجيه ضربـات مؤلمـة للنظام وأعوانه، إن كنتما على استعداد سنسـمع الجـواب بعـد أيام من صالح، يكفي أن تقـولا لـه موسـم الحنطـة بخـير هـذا العام وعند ذلك سيبدأ العمل الحقيقي.**

تهللت أسارير عبد الرحمن فرحاً أدار وجهه نحو حميد وهز رأسـه، فأومأ له برأسه بالموافقة فقال بفرح:

- **لا داعي للانتظار الموسم بخير يا شيخي.**

التفت الملثم إلى صحبه وقال وهو يضحك:

- **هل انكشف أمرنا يا أصحاب.؟.**
- **عفوا ما قصدت، بس أنا قلت شيخي لأنو متعـودين مـا يحـكي بالفصحى إلا الشيوخ، يا شيخي.**
- **فهمت عليك أنا أمازحك سيأتي اليوم الذي نتعارف فيه.**

أشار الملـثم لصـالح فخـرج، ورتـج[٨٧] البـاب خلفـه. فـأخرج خريطـة بدائية للمدينة، وأشار بإصبعه نحـو نقـاط محـددة بلـون أحمـر فـاتح،

---

[٨٧] أغلقه بإحكام.

ونقاط أخرى زرقاء تتمركز فيها دوريات وحواجز الأمن والشرطة، لكنه اشترط عليهم تنفيذ العملية بالتشديد على عنصر المباغتة والسرية وتأمين عنصر ثالث لتأمين التغطية لهما من الجهة الخلفية كيلا تباغتهما الدورية التي تتمركز في الجهة المقابلة، نظرا إلى بعضهما، أومأ عبد الرحمن برأسه موافقاً فنفض حميد رأسه نافيا، ربت على كتفه ليفهمه أن ذلك الأمر منوط به و ولم يكن في ذهنه أي شخص لكنه خاف أن تسحب العملية منه وتناط بغيره.



رفعت توق رأسها عن الصحيفة التي كانت تتظاهر بقراءتها متشاغلة للهروب من أفكارها ومخاوفها عند سمعت نقرات متوالية على الباب، فوجئت بشكري الذي وقف فاغراً وقد ارتسمت ابتسامة بلهاء على وجهه، تقدم نحو مكتبها ببطء جلس وأردف ساقاً على ساق، مدّ يده طوى الصحيفة أمامها، وهي ترمقه بحقد وحنق، أخرج جهازه المحمول ولوح بيده أمام عينيها قائلاً:

- **الملف هون يا أموره لحد اليوم ما حدا شافه إلا إذا.!؟.**

اعتراها خوف وقلق بالغ وهي تنظر إلى الجهاز الذي يحمل قنبلة موقوتة ستنسف حياتها وأسرتها في أي لحظة يشعل فيها الفتيل.

فتح جهازه المحمول، وهو يقهقه، شغل الملف، أدار الجهاز نحوها قرّبه من وجهها، قابضاً عليه بقوة، رأت نفسها عارية وهي تستلقي على الأرض، والصورة تتحرك من بين رجليها نحو سرّتها إلى نهديها العاريين، لتستقر مطولاً على وجهها الذي ملأ الشاشة متجلياً بوضوح، ثم تعود لتستقر فوق حيائها ثم تتبأر الصورة لتملأ الشاشة في لقطة دخول للمقراب، مدت يدها لتخطف الجهاز، لكنه تدارك الأمر، أبعده وهو

يضحك، استجمعت ما في جوفها من لعاب وبصقت على وجهه فوقف مغضباً، وهو يمسح اللعاب الذي سال على شاربه ومال نحوها هامساً:

- **وفري البزاق لغير موضوع يمكن يلزمنا كتير، هههههه.**
- **حيوان، انت عن جد حيوان.**
- **خليكِ عاقلة يا آنسة، لا تدمري سمعتك، وسمعة أهلك، أبوك ما رح يتحمل الخبر، بدنا كل تفصيل، لا تكبري راس، شوفي الحبيب محمد لما كبر راس، فقد أعز الناس، فهمتِ.؟! أعز الناس. ان شاء الله مفكرة انو ابنو مات هيك، ههههه بس ديري بالك يعرف، بيروح وراه أبوه أو حتى ....أبوك أو أخوكِ.**

تغلغلت هذه الجملة قلبها كنصل سيف ثلم، تراءت صورة طفل ذبيح أمامها فاغرا فاه يتلوى، تراءى لها محمد تلفه غمامة سوداء، لم تكن تتصور يوما أن تكون الأمور بهذا السوء في بلد أحبته حتى القداسة، أحبت حزنه وفرحه، ترابه، بشره وحجره. باغتها شعور بالغثيان، جاشت أحشاؤها عالياً، أحست برغبة في التقيؤ، اضطربت روحها متلاطمة كموجة عاتية تحاول كسر ما حولها كأنما قد ضاق عليها الجسد، لم تستطع النهوض لتلقف الهاتف الذي لوح به وهو يغادر مقهقها ليزيد من حدة شعورها بالتقيؤ والغثيان.

❖ ❖ ❖

لم يكن محمد يشعر بحالة الارتباك والقلق التي كانت تنتاب حميد الذي راح يمسد لحيته الطويلة وعبد الرحمن الذي كان يقضم أظفاره و ويتفل ما قضم بهدوء وأحيانا يلصقه بإصبعه ويدسه أسفل السجادة.

انفض المعزون جميعاً وظلا يجلسان للوقوف بجانب محمد يرمقانه بصمت وهو غارق في سحابة حزن عميق يهدأ حيناً ويجهش بالبكاء أحياناً:

- **المصيبة اش جاب السيارة لعنده؟! يعني الولد بعيد عن الجادة بمسافة كبيرة أحيانا يراودني انو الموضوع مقصود يا حميد!!**

حاولا تهدئته وبعث الصبر في قلبه المحطم دون جدوى، كان يصرّ على أنّ الموضوع غير مقنع كقضاء وقدر وهو لا يملك أي دليل على ما تذهب إليه وسواسه وظنونه، لكنّه في غمرة الحديث انتبه لحالتهما المضطربة فاقترب أكثر محاولا نسيان ما يؤرقه وقد كان يعرف أنّهما يعملان بسرية لتصعيد الأوضاع وتحريك الأحداث نحو فعالية أكثر يشجعهما أحياناً، ويحاول أحيانا دفعهما للتصرف بحرص وعقلانية متخوفا من ردّات فعل عنيفة من قبل النظام وأنها قد تكون ذات منعكسات كارثية على المنطقة بأسرها وهو يريد التغيير لكنه يجنح للسلم أحياناً ويصرح أحيانا برغبته بنسف كلّ شيء واللجوء إلى الحل العنفي لاقتلاع شأفة النظام من جذوره.

لكز حميد عبد الرحمن فنهض أخذ دلّة القهوة المرّة صبّ القليل دلقه في حلقه ثمّ صبّ رشفة أعطاها لمحمد الذي تناول الفنجان وضعه بجانبه على الأرض، فجلس عبد الرحمن قبالته وقال:

- **كان بودنا نظل معاك، بس بصراحة مرتبطين بموعد عمل ضروري.**

أومأ محمد برأسه تناول الفنجان رشفه على عجل وحاول معرفة ما ينويان القيام به لكن عبد الرحمن تهرب قليلا من الخوض بغمار الموضوع فألح عليه لمعرفة التفاصيل، أصاب عبد الرحمن حرج وارتباك

نظر إلى حميد الذي أومأ برأسه وهو يقبض على لحيته فانبرى محمد يحدثه عن التفاصيل العامة دون الخوض في جزئيات العمل.

فكر محمد للحظة بثنيهما عن الذهاب للقاء أصدقائهما اللذين قدموا لإعطائهم بعض الخرائط والنصائح للعمل خوف أن يكون الهاتف مصيدة للإيقاع بهما، حاولا إقناعهما بالحذر والعمل بوتائر أخف لكنه لقي إصرارا أشد، لم يشأ الاستمرار بالحديث أكثر انتابه خوف من أن ينقلب الأمر وبالاً على رأس الجميع ، فمجرد معرفته بما يقدمان عليه سيجعله شريكا أصيلاً في عرف الأمن.

جلس منزوياً في صيوان العزاء بعد أن غادرا وحين اطمأن الى أن أحداً لن يأتي في هذا الوقت المتأخر، ارتشف فنجان قهوة مرة على عجل ومضى إلى البيت يجرّ خطاه في تيه من الحزن والضياع.

❖ ❖ ❖

جلست توق وسنى يتناهبها السهد والأرق، غائرة العينين وقد طوقت عينيها هالات بلون الكحل أفقدت وجهها العريض الممتلئ بريقه ورونقه، فتحت حقيبتها سرطت قرصي مسكن ألم دفعة واحدة، جلست محتبية تكورت فوق السرير، فتحت عينيها قدر ما تستطيع مقاومة إغماضهما لتتحاشى توارد صورة مقطع الفيديو وهي عارية وهو يقهقه فوقها كخنزير، أجهشت بالبكاء مرات، ثم تمالكت نفسها، مسحت دموعها، وهي تسمع صرير الباب عندما دلفت مرح رانية إليها بإشفاق واستغراب وسرعان ما خرجت وهي تراها على تلك الحالة البائسة وقد عييت وهي تسألها عن سر ما يعتريها، دون أن تحظى بإجابة. تناولت جوالها استعرضت الأرقام وقفت عند اسمه ألقت الجهاز، ثم سرعان ما تناولته حاولت الاتصال به ثانية لم تستطع كابرت استجمعت رباطة جأشها خابرته بصوت مخنوق:

- **كيفك**
- **هههه، كنت عرفان إنك رح تاخدي القرار الصحيح، بس ما توقعت بهالسرعة.**
- **بالعكس خير البر عاجله انت ما تركت لي خيار.**

❁ ❁ ❁

عندما عادت عائشة إلى البيت متعبة دامعة العينين، اطمأنت قليلاً عندما علمت أنّه لم يعد منذ يومين، تأكدت أنّ الأخبار التي حصل عليها عبد الرحمن من الناشطين صحيحة، بأنه أعاد ارتباطه بسلك الأمن ثانية أعادوه مرغمين لأنّهم باتوا بحاجة إلى كلّ عنصر، بعد أن رموه سابقاً في عهد ازدهارهم، واطمأنت إلى صدق ما رواه أقران أبيها لعبد الرحمن حيث أخبروه أنّ صلال كان أقسى العناصر عليهم ولاسيما على السجناء من أبناء بلده وخصوصاً المنتمين لليمين، أو المتهمين به زوراً وبهتاناً، كان يأتيهم في هدأة الليل أو في وضح النهار، يخرج من يريد منهم برفقة عنصرين، يقومان بتقييد السجين ليلوطه. ولم يخبرها عبد الرحمن ما قال له أحد السجناء إن خسته وصلت به إلى درجة أنه كان يمسح عضوه بلحى السجناء بعد أن يقضي وطره، لم يكتف بذلك بل بات يبحث عن طرائق أكثر، وبمعونة من زميل له كان يأخذ عناوينهم، يزور أهلهم خفية بذريعة إيصال الأخبار للأهل والأموال التي يرسلونها، يحملها مدعياً أنّها ستصل إلى السجناء، لينفقها على المشروب والحبوب التي أدمن تعاطيها، ظلّ هذا ديدنه لسنوات يمتص دماء الناس حتى انكشف أمره حين خرجت دفعة من السجناء، بعد أن باعت أسر كثيرة حليها ومقتنياتها ظانين أنها وصلت لمعتقليهم.

تحولت عادة اللواطة عنده من واجب قومي، ووطني يجاهر به أمام أسياده -الذين باركوا فعله- إلى هوس، وشغف وهواية لم تعد

ممارستها مع السجناء، تكفيه فتحول إلى المجندين الذي يخدمون في نفس السلك، وكانت تلك القشة التي قصمت ظهر البعير حين راود مجنداً عن نفسه فتمَنع، حاول اغتصابه، وخلال أيام فقط صدر الأمر بتسريحه كون المجند من أقارب مدير السجن. لم يشع خبر تسريحه كثيراً فاللذين يعرفون كانوا داخل الزنزانات، وزملاؤه لم يشيعوا الخبر على نطاق واسع خوفاً على سمعتهم وكان صلال قد وطّد علاقاته مع بعض العائلات التي لم تعرف حقيقته، ولم تعرف أنّه سرح إلا بعد أمد طويل ظلّ يزور الأسر يأخذ الأموال والمعونات والرسائل ليوصلها إلى السجناء، وكانت أمّها آخر وأكبر ضحاياه.

جلست عائشة في لحظة صمت وتفكير بعد أن بكت لترتاح دون جدوى أكثر ما كان يشغلها الانتقام لامها وأبيها، همّت تنهض أكثر من مرة للذهاب إلى أمّها لتخبرها ما خفي عنها ولكنّها تراجعت خوفاً عليها وهي تعرف أنّ أمّها قد تذهل بمعرفة ما عرفت لأنّها بالتأكيد تتوقعه منه وإن لم يكن يقيناً عندها، تراجعت لمعرفتها بحالة أمّها المتردية ووهنها الذي بدأ يزداد في السنة الأخيرة.

❁ ❁ ❁

توقف حميد عند منعطف صغير، أطفأ أضواء السيارة دون أن يطفئ المحرك، كانت ليلة مظلمة غاب عنها القمر كلية، التفت حميد إلى عبد الرحمن ليتحدث إليه، لكنه تراجع عندما وجده مرتبكاً يقضم أظفاره بعصبية ونزق وهو يمعن النظر ملياً في المدى البعيد، وعندما لاحت سيارة من بعيد لم ينطق، واكتفى بتنبيه حميد بضربة صغيرة على يده التي استقرت على المقود، وأشار له بسبابته نحو البعيد، حيث اقتربت السيارة وهي تسير ببطء وقد أطفأت الأضواء الرئيسية أدار

حميد مفتاح الضوء أشعل المصابيح لوهلة ثمّ أطفأها ثلاث مرّات ردّت السيارة المقابلة بنفس الحركة، داس حميد على دعاسة الوقود، سار مقترباً من السيارة ترجلا فوجدا أمامهما ثلاثة ملثمين، تصافحوا على عجل دون كلام، تعاون الجميع في حمل المعدات من الشاحنة الصغيرة إلى سيارة حميد وانصرفوا في جهتين مختلفتين.

❁ ❁ ❁

ولج أيمن المكتب فسكتت عائشة، عدلت من وضع جلوسها، فوضع ذلك شيئاً في نفسه لأنّه شعر أنّها تتحرى في جلستها وحديثها أمامه في حين تتصرف على سجيتها أمام عبد الرحمن. للحظة حاول أن يخرج كردّ فعل، ليوصل إليها شعوره بالامتعاض، لكنه أدرك أنّ ذلك لن يجدي نفعاً ردّ الباب خلفه جلس قبالتها واجماً.

- **يبدو أنني قطعت حديثكم.؟!**
- **ما عدنا حديث غير حديث الثورة، يعني بالعربي لا يروح بالك لبعيد.**
- **قهقه أيمن ضاحكاً وقال يذكرني كلامك بنكتة سمعتها.**

وقفت عائشة منتصبة وهي ترفع يدها في وجهه صارخة:

- **الموضوع ما يحتمل المزح والتنكيت، الناس كل دقيقة تذبح وأنت تريد سرد نكاتك السخيفة.**

وجم باسر الوجه، قد تملكه خجل وخوف من ردّة فعلها القوية، حاول أن يتحدث، أن يعطي تفسيراً لتصرفه تلاشت كلماته كلها، لم يجد بداً إلا أن ينصرف غضبان، حاول عبد الرحمن أن يتبعه لكنها منعته بحزم، وعادت تتابع حديثها بصلابة وجلد شديدين، لتقنعه بمنح الفرصة لأخيها لكي يشاركهم العملية على الرغم من تعنت عبد الرحمن الصارم الذي حاول

نسف الفكرة من جذورها، لعدم اقتناعه بقدرة الفتى على تحمل مشاق العملية وصعوبتها، وما قد تسفر عنه من نتائج كارثية في حال منيت بالإخفاق، بيد أنّ كلّ ما ساقه من أعذار لم يدفعها للاستسلام متعللة بضرورة إعطائه الفرصة شريطة التكتم على شخصيته، لأنّه لن يقبل المشاركة بوجه سافر شعر عبد الرحمن بغصة ندم تنهش قلبه، لأنّه باح لها بسرّ العملية في لحظة ضعف ساقه قلبه إليه خاف ألا يراها، إن لم تكتب له النجاة، أراد أن يستودعها سرّه وأن يأتمنها على حبّه، لم تترك له الفرصة ليجزم الموضوع، ناورته بالغنج حيناً، وبالتوسل حيناً، وعندما أصابها القنوط منه بكت لم يحتمل رؤية دموعها، آخذها بين ذراعيه لوهلة ضمّها بقوة لزّها إلى قلبه استرق قبلة من جبينها، ابتعدت عنه وجلة من قدوم أحد على حين غرة. رمقته بنظرة عتب لإقدامه على ذلك في رابعة النهار فابتسم لأنها لم تعاتبه على ذلك إلا خشية ورهبة، قام فجأة لوّح لها بيده ومضى. اكبت على المقعد باكية ثم رفعت رأسها ثانية عندما سمعت نقرات خفيفة على درفة الباب المفتوح رفعت رأسها لتجده ثانية، قد عاود الحضور لم يدخل، أومأ لها برأسه، فارتسمت على محياها تعابير فرح تكللها دموعها التي مازالت تنهمر على خديها.



كان المخاض عسيراً عانت فيه توق صراعاً مريراً بين التكتم، والبوح وأشدّ ما قض مضجعها البداية، كانت بداية تشبه ولوج نفق موت ساردة لأول مرّة لغير نفسها حكايتها المأساوية مع شكري وما جرّها إليه. تعثرت الكلمات على لسانها تحولت الحروف حراباً تنغرز بجوفها تعالت على ألمها، وحزنها وباحت بكل شيء أفضت بمكنونات ما كبتت في قلبها من مرارة وأسى لمي التي وقفت هي الأخرى عاجزة تتناهبها الأحزان كريشة في مهب

الريح، تعانقتا عناقاً طويلاً، التحم الجسد بالجسد وتغلغلت الروح إلى الروح، فالقلوب الكسيرة والأرواح المقهورة لا تحتاج لترتيبات وأنظمة تواصل، لأنها تفتح أنفاق سرية، تنفد الروح الذبيحة إلى صنوها الأثيري المنكسر بيسر، توادعتا وداعاً جنائزياً فلق التحام جسديهما بألم طفيف، ولكنه بعث فيهما ألاماً مبرحة عندما تباعدت الروحان كلّ في فضاء، خرجت توق بصمت تجرّ جسدها المضنى من ثقل الأحزان بعد بوح كان مثل ولادة الموت. لم يزدها البوح إلا ألماً، وعندما غادرت رجعت ثانية أخرجت مغلفاً صغيراً من حقيبة يدها دسته في يد مي وقالت بحزن:

- **ممكن يوصل لمحمد.؟!! بس بكرة مو اليوم إذا سمحت.**

ما إن خرجت إلى الشارع الرئيسي حتى فتحت الحقيبة أخرجت هاتفها المحمول طلبته فأجابها ضاحكاً:

- **كنت متأكد انك رح تتصلي.**
- **مرحبا بدي شوفك ضروري.**
- **جاي طيران بس اشري.**

بعد أن حددت له العنوان أغلقت الهاتف، وهي تشير لسيارة أجرة عابرة، أقلتها حيث أخبرته، ترجلت قبيل المكان المحدد بقليل، حرفت طريقها نحو الفرات، الفرات الذي تحول في عينيها من كتلة ماء أزرق تترقرق كظهر درع تعلوه حدبات وحزوز كأنه زجاج محجر بنقوش نافرة ، تحول إلى عالم نابض بالروح، والحياة حياة مفعمة بالحبّ والوله، أحبته بالعدوى، في البداية كانت تغار على محمد من الفرات فصارت تغار على الفرات من محمد خوف أن يحبّه أكثر منها، التهمته بعينيها السوداوين الجميلتين تمنت لأول مرّة لو كان لون عينيها ازرقاً كالفرات تفرست فيه ملياً لاحقت بنظراتها التائهة العطشى نوارسه وهي تعلو وتدنو، تقترب، تبتعد.

عندما ظهر كهيئة شبح من بعيد صرت عينيها قليلاً لتتأكد من هويته بدت كأنها تنتظر حضوره على تشوق ووله بعث ذلك فيه شعوراً ولّد الفرح بداخله، مدّ يده فوقفت مبتسمة، أشارت له ليجلس وهي تقرأ الفرحة الغامرة التي لبست ملامح وجهه.

- **شايفك فرحانة وهادا الشي بيسعدني.**
- **بشوفتك.**
- **يا سلام معناها اتفقنا.**
- **الحقيقة شفت أنو طريق النجاح من خلالك أقصر بكتير.**
- **عين العقل، شو بتشربي؟!**
- **بعد شوي خلينا نتأمل النهر.**
- **تكرمي.**

نهضا معا وقد تملكته الغبطة، قفز فوق السياج بحماسة مدّ يده لها فشكرته مالت نحو بوابة صغيرة، فأسرع لاستقبالها وراح يتأملها، وهي تنظر نحو الأفق البعيد، ونسمات الهواء العليل تداعب شعرها ليغطي عينيها فتبعدها عن وجهها ثمّ سرعان ما تعود لتغطيه ثانية.

مدت يدها دون أن تنظر إليه باحثة عن يده التقطتها، فارتعدت أوصاله، لم يكن يتوقع أن يحدث ذلك بهذه السرعة سرت النشوة في جسده وقد تهللت أساريره فرحاً، ضغط برفق على يدها اقترب منها أكثر أفلتت يدها من يده اقتربت أكثر نحو الحافة انحنت ناظرة نحو الماء وصاحت:

- **واو المي بعيدة جداً والضفة مرتفعة كتير.**
- **انتبهي توق.**

- **عطيني ايدك بدي اتفرج ع المي عن قرب.**

اقترب منها امسك يدها بسعادة يمازجها خوف من الأماكن المرتفعة في حين التفت يده الأخرى حول خصرها وطوقته هي بيدها فأحكمت التمسك به جيداً:

- **لا تقربي أكثر الجرف عالي يعني الواحد ما بيصل المي إلا مكسر أو ميت إذا وقع.**
- **تعال شوف المنظر حلو كتير.**

كان الماء البعيد العميق يلطم الصخور المتآكلة على الضفة بقوة، وكأنه موتور يطلب ثأراً، أخذت توق بسحر المنظر في حين كان هو مشغولاً بيده التي تداعب يدها، وبالأخرى التي تطوّق خصرها الضامر.

❁ ❁ ❁

الأخبار اللاحقة التي حصل عليها عبد الرحمن من سجين كان يشارك والدها الزنزانة قصمت ظهرها عندما عرفت أن صلال كان وراء استمرار سجن والدها أكثر من رفاقه الباقين عندما أوصل لرؤسائه أخبار مدسوسة حول الرجل وتطلعاته للعودة إلى العمل العسكري للإطاحة بنظام الحكم بعد خروجه.

لم تكن المسألة بحاجة لأكثر من ذلك فوشاية واحدة تكفي لتمديد الحبس سنوات أخرى، وكان كلّما لاح أمل بالإفراج عنه اختلق صلال وشايات وشهادات جديدة متعاوناً مع بعض السجناء الآخرين الذين يعدهم بالمساعدة أو بنقل أخبار أهلهم وذويهم مختلقاً حكايات وأكاذيب في كل مرة يتواطؤون معه. سرد لها كل ما سمع بتفصيل مفرط فكادت تنهار وهو تنصت اليه بكآبة وحنق يمزقان قلبها عندما تيقنت أنه قاتل أبيها المتوفى وقاتل أمها التي ما زالت على قيد الحياة.

جلس عبد الرحمن واجما وهو يرقب نشيجها المتعالي وهو تبكي بحرقة تكاد تنقطع انفاسها كلية ثم فجأة تستنشق الهواء بقوة كأنما قد خرجت من جوف ماء، لم يجد ما يقوله ليخفف عنها، تحابى اليها بهدوء، مسح دمعها بابهاميه واحتضنها بصمت وخشوع وكأنه يحض قربانا مقدساً، أحس برهبة وجلال شعور لم يخالجه قبلا وهو يحتضن جسد امرأة كان شعوراً مختلفاً ومائزاً هذه المرة كثيراً.

❁ ❁ ❁

تعالى دوي طلقات الرصاص المتبادل عند مدخل المدينة، واستمر لدقائق في زخات متبادلة من الطرفين تلاه هدوء مطلق من جهة الحاجز الأمني فتراجع حميد ببطء نحو السيارة، تبعه عبد الرحمن بحذر شديد متخوفاً من كمين أو من خروج عناصر جدد لم يجهز عليهم وابل رصاصهم أما الجهة الأخرى المعاكسة فكانت هادئة هدوءاً تاماً، ولم تبادر أيّة قوى داعمة لمساعدة الحاجز الذي قضى جميع عناصره. رأى حميد الملثم قد تقدم وهو يشير له ليغطي الجهة التي كان يحميها، انطلق مسرعاً نحو الحاجز غير آبه بصيحات حميد وعبد الرحمن بالعودة للمغادرة قبل وصول الإمدادات العسكرية بعد سماع دوي إطلاق النار. كان الملثم يركض بأقصى سرعة وبكل طاقته حتى وصل الحاجز. كانت الجثث على مقربة من بعضها بعضاً وكان صلال في المنتصف فاغر الفم وقد تمازج زبده ودمه بلفافة تبغه الغريبة التي يدرجها لنفسه ليدخل في عوالم زاهية. وضع الملثم إصبعيه على عنق صلال فشعر بنبض خافت كأنه رجع نبضة بعيدة اخرج المسدس افرغ ثلاث طلقات في رأس صلال وقفل راجعاً وقبل الوصول إلى السيارات كانت الإمدادات قد وصلت من بعيد لتبدأ مناوشات جديدة، اخترقت ذراعه طلقة رشاش خفيف فسقط على الأرض قبل وصول

السيارة، أخرج حميد قاذف الـ ار بي جي سدد نحو السيارة البعيـدة انطلـق المقذوف يتلوى في العتمة نحو مصابيح السيارة ليحيلها فجـأة إلى كتلـة نـار متوهجة ارتفعت عالياً، ثم هوت لتنفجر شظايا وأشلاء وألسنة لهب.

❁ ❁ ❁

دوي الانفجار جعل أهل المدينة يأوون إلى بيوتهم بـاكراً، فقـد كـان ذاك أول علامات بدء الحراك المسلح فيها، دارت قصص وحكايات شـتى عمّا حدث كان أكثرها استنتاجات وتكهنات ليس أكثر. ففي تلك العشية عاد محمد مبكراً إلى البيت عندما خلت العيادة واضـطر بعـض المـرضى من ذوي الحالة الباردة للعودة إلى بيوتهم مسرعين.

كان الخبر قد وصل بسرعة البرق إلى الفضائيات وتحدث الناشـطون عن معركـة حاميـة الـوطيس، بـين الثـوار، وحـواجز أمنيـة عنـد حـدود المدينة، وأنّ القتال استمر لأكثر من نصف ساعة حصد الثوار فيـه أرواح كثير من العسكر والأمن.

استلقى محمد على ظهره وهـو يتـابع الأخبـار، ليفـتر فـاه عـن أول ابتسامة بعد رحيل أسعد الذي قض مضجعه وقصم ظهره. شعر بحركـة مريبة حول المنزل فخفـض الصـوت وربـض بمكانـه، أطـرق مليـاً، سـمع نقرات خفيفة على الباب، اقترب على قلق بهدوء جم، فتح الباب بسرعة وقد تملكه قلق وخوف فوجد حميد يقف لاهثا مـدمى اليـدين، أدخلـه على عجل تلفت يمنة ويسرة ليتأكد مـن أن لا أحـد يـراه لم يصبر عليـه ليلتقط أنفاسه دفعه إلى الكلام قسراً لأنّه لم يستطع احتمال المزيـد مـن الانتظار وهو يراه على تلك الحالة.

❁ ❁ ❁

- **شكري! عطيني جوالك شوي.**
- **ليش.؟!**
- **فضول بدي أشوف المقطع.**

أخرج هاتفه المحمول من نطاقه شغل المقطع وقدمه إليها:

قرّبت الهاتف صرّت عينيها وقد ترقرقتا بالدموع، دققت فيه بأناة، وصبر، كابرت على نفسها بشدّة متجاوزة الألم الذي أيقظه بداخلها، وهي ترى نفسها عارية، وبراثنه وأنيابه تنهش لحمها الغض الغرير وعندما انتهى المشهد أمسكت الجهاز بقوة، شدت يدها عليه كأنها تحاول اعتصاره، تقدمت خطوة نحو الجرف الهار نظرت إلى الأسفل ثم تراجعت خطوة، أسندت ظهرها إلى شجرة السرو القريبة، وأشارت له أن يتقدم أكثر اقترب منها بتأنٍ، أمسكت يده بلطف رفعت يده، وضعتها على خدّها ثمّ سحبتها لتنام فوق كتفها وأسندت خدها على يده فاشتعلت فيه النيران، دنا أكثر، التصق بها بحميمية، متوجساً من هذا التحول المفاجئ، التهبت نيرانه وهو يتنسم عبير عطرها الذي بدأ يتضوع، أوقدت رغباته سعيرا يتأجج على حطب الجسد والروح،تناهضت كل خلاياه تدفع عن نفسها الوسن.عندما دست يدها الناعمة من بين أزارا قميصه لتداعب صدره، قبضت على شعيرات صدره فتلتها بلطف، فتأوه صرت عينيها وهي تمتص شفتيها الممتلئتين، وقد تركزت عنياه عليهما، سرت في جسده نيران الشهوة والرغبات المكبوتة، استعاد كل مشاهد أحلام اليقظة والنوم التي رآها فيها عارية تتراقص أمامه حورية تخرج من رحم الماء :

- **عندك نسخة ثانية من المقطع.؟!**
- **بصراحة لأ.**
- **أكيد.؟**
- **وحق الإمام علي.**

- **صدقتك بصراحة أنا مشتهية...؟!**
- **ولك أنا اللي مشتهي ...**
- **طيب غمض عيونك أنا بخجل.**

أغمض عينيه، مط شفتيه إلى الأمام، ألقت الجهاز في الماء فاستقر في أول الضفة، اقتربت مكابرة اشمئزازها، قبّلته على خدّه وهو يصيح بها:

- **يالله تأخرتِ.**

عندما لمست شفتاها خديه تسعّرت النيران في وجهه، وسرت شهوة عارمة في جسده، اقترب منها أكثر فدفعته بغنج وقالت:

- **احضني شكري.**

امتثل بغبطة، احتضنها بقوة، وعندما صارت البحيرة خلف ظهرها تشبثت به بقوة وهو يقبلها بنهم رفعت رجلها إلى جذل شجرة السرو ودفعت بكل قوتها فارتدا بقوة، وقعا عن حافة الجرف، تدهديا نحو الهاوية، تدحرجا نحو الماء بسرعة، وصراخ شكري وعويله يشق الفضاء الرحيب، ولم يكف عن السباب والصياح إلا بارتطام رأسه بصخرة كبيرة، تدهدى بعدها بصمت وبمحاذاته يتدحرج جسدها وقد افتر ثغرها عن ابتسامة عريضة، وصل الماء جثة هامدة غاص للحظة ثم طاف على وجه الفرات.

❁ ❁ ❁

لم تكن الإصابة خطيرة، رغم كثرة الدم الذي نزف من الذراع حيث اخترقته الطلقة، وعندما وصل محمد كانت الحالة جيدة، بفضل المكربة التي ربطها حميد حول الذراع ليخفف النزف سارع محمد بعمله، تحسس مأبض المرفق اليسار زرق حقنة مسكن ألم، طلب إماطة اللثام للمساعدة على التنفس الجيد لكنه واجه ممانعة من المصاب فقدر أنه لا يرغب بكشف هويته لأحد.

فتح الحقيبة أخرج معداته واقترب من العضد شق كم القميص حتى الردن، بجّ الجرح لينظفه، كانت الدماء تغطي كامل اليد، أشار لعبد الرحمن، فتقدم وأعطاه الكحول وقطعة قطن وعلمه كيفية مسح الدماء في حين اقترب من موقع الإصابة تفحصه بدقة قلّب العضد على وجهيه تنهد بعمق وقال بفرح:

- **الموضوع بسيط الرصاصة غير مستقرة يبدو اخترقت اللحم طلعت من الناحية الثانية زين ما صابت العظم.**

أشار لعبد الرحمن الذي كاد يفقد وعيه وهو ينظر في عمق الجرح والدم ينزف بقوة، عاود عبد الرحمن عملية تنظيف الزند والعضد من الدماء، حتى ظهر الجلد البض الناعم توقف لوهلة وهو يبرهم النظر فيه ملياً ثم رفع رأسه نحوها، أدركت أنه قد كشف أمرها، التقت عيناهما حدق بعينيه مليا ففاجأته بغمزة عاجلة من عين يعرفها مليا فابتسم، غمز لها وهو يهز رأسه بتعجب، وقد مط شفتيه، نظرت إليه ووضعت سبابتها على فمها فوق اللثام فأومأ برأسه بالامتثال وخرج مبتسماً في الوقت الذي كان محمد ينهي معالجة الجرح وهو يتساءل في دخيلته عن سر بضاضة هذا الجسد.



كانت السيارات تنهب الأرض بسرعة متسابقة للوصول أولا تتقدمها سيارة دفع رباعي حديثة تقل ثلاثة عناصر مدججين بأسلحة آلية حديثة مزودة في قسمها الخلفي برشاش آلي ضخم مرتكزا على قاعدة في منتصفها يطوقها أربعة عناصر مدججين برشاشات خفيفة وجعب طلقات كثيرة لكل عنصر انزلقت السيارة الأولى نحو هور غير عميق سالكة طريقا ترابياً طويلاً بسرعة فائقة، تبعتها السيارات الباقية

مستدلة عليها من زوبعة العجاج التي خلفتها عجلاتها، توقفت السيارات على مقربة من بيت طيني صغير، ترجل العناصر من جميع السيارات هيأوا أسلحتهم لتكون على أهبة الاستعداد طوقوا البيت من جميع الجهات، اقتحم عنصران البيت ركلا الباب الخشبي المتداعي ركلات متوالية سقط الباب هرعت امرأة عرجاء إليهم مولولة دفعها أضخم العناصر جسما فتداعت إلى الأرض، اقتحم الغرفة ركل برجله صحن برغل كان تقتاته طفلة في الخامسة من عمرها تجمدت الطفلة لم تستطع البكاء، اختنقت عبرتها من شدّة الرّهبة، استيقظ أخواها الصغيران على أصوات الجلبة، تقدم أحدهم نحو الشيخ عبود الذي ظلّ جالساً كمن كان ينتظرهم منذ أمد متوقعاً زيارتهم وقال ساخراً ببرود:

- **زميلكم عبود الشلاش قناص محترف، إنشاء الله جبتم معاكم عصابة لعيوني.**

عصبوا عينيه قادوه مكبلاً إلى السيارة وعيون بعض أهل القرية ترقب المشهد من خلف شروق أبواب بيوتهم بقلوب راجفة وألسنة واجمة.

❁ ❁ ❁

أصرت عائشة على الدّوام في صبيحة اليوم التالي، كي لا تثير الشكوك، ولكي تقف على ما تمّ انجازه بعد العملية التي كللت بنجاح كبير، لكنّها عانت الأمرين، وهي تحاول مداراة ألم ذراعها عند الحركة، وأشدّ ما عانته محاولتها كبت الألم عندما دخل أيمن فاضطرت للوقوف فنكأت الجرح أصفرّ وجهها، عضت على شفتها بقوة حتى كادت تجرحها لتخفي وجعها عنه، لكنه لحظ ذلك، وتجاوزه على غير عادة، لأنه كان متلهفا ليسرد لهم الأخبار فجلس على عجل، وقال:

- **مسكينة الصحفية توق سمعت وقعت بالبحيرة وكانت رح تغرق بس طلعت سليمة شوية خدوش رضوض.**

غيّر عبد الرحمن من وضعيته وقال وهو يقترب من أيمن لينصت إلى تفاصيل الحكاية التي سردها كشاهد عيان ملتقطاً ما سمع وما تناقل الناس والذي لخصه لهم باقتضاب:

- **اجتمع الخلق وركضوا نحو الضفة عندما سمعوا صياح شكري وعويله، عندما انبرى بعض الشبان للنزول وجدوه جثة هامدة وكانت توق في الرمق الأخير. التجمهر الذي حصل جعل كثيرين يسارعون لإخبار الجهات المختصة التي سارعت بالوصول على غير عادة خوفاً من أن يكون الموضوع مظاهرة متخوفين من أن يكون المتظاهرين قد نقلوا نشاطهم للقسم الشمالي من المدينة.تداعت الأفرع الأمنية من كل فج عميق طوقوا المكان بسرعة بالعناصر المدججين بالسلاح والرشاشات الآلية، كأنهم قد تأهبوا لغمار حرب شرسة، عندما اكتشفوا جلية الأمر انسحبوا دون أن يلقوا بالاً لما حدث ويحدث، تولى عناصر الإطفاء انتشالهما أسعفت توق وتركت جثته لانتظار الكشف الشرعي الذي قام به طبيب على عجل. ابلغ المركزي الإذاعي والتلفزيوني الذي قدم على عجل ليصنع من الحدث حكاية جديدة حيث اقتربت المذيعة تتبعها الكاميرا وهو تقول بصوت حزين خفيض:**
- **هاهو بطل آخر من جندنا المغاوير حاول إنقاذ الزميلة توق عطا الله، فدفع حياته ثمناً لتضحيته كما هي عادة جندنا البواسل.**

عندما اكتشفوا شخصية شكري عادت الدوريات ثانية لتطوق المكان ، أبعدوا الناس بالشتم والزعيق ومن لم يبتعد منهم تولوا إبعاده بأعقاب البنادق.



أصيب حميد بالارتباك، والقلق من الهاتف المجهول الذي تلقاه من شخص أخبره أنّه من جماعة صالح السعيد، طلب إليه أن يصطحب عبد الرحمن، وأن يلقاه جنوباً في البرية، قبل غروب الشّمس، أوجسا ريبة من أن يكون الأمر فخاً، ذهبا في الحزة إلى محمد، أرادا أخبراه بما كان، ليظل على علم في حال حدث ما لا تحمد عقباه، وجداه غارقاً في حزنه، وقد تورمت عيناه من البكاء، اضطرا للمكوث معه لمعرفة ما قد أصابه فقال بحرقة:

- **مصيبتين وقعن على راسي، بهضنّي، چنت حاس ان أسعد انقتل، وما كان الأمر مجرد حادث.**

قاطعه عبد الرحمن بتله[٨٨]:

- **شلون عرفت.؟!**
- **الحقير شكري خبّر توق قبل ما تجهز عليه.؟!**

صرخا الاثنان معا بتعجب:

- **تجهز عليه.؟!**

أخرج الورقة التي تركتها له توق عند مي ومدها إليهما، اقترب حميد من عبد الرحمن ومط عنقه وراحا يقرآن.

أشعل محمد سيجارة، سحب منها نفساً عميقا، غادر إلى المطبخ متخبطاً، غسل وجهه، وعاد يحمل القهوة فقال وهو يسكبها:

- **اليوم زرتها بالمستشفى وضعها مستقر لكن حالتها النفسية متردية تحتاج لعلاج نفسي طويل للخروج من الأزمة المريرة والجهات الحقيرة سوّت الكلب بطل، الحقير ذبحني مرتين، الله ينتقم منو.**

---

[٨٨] التله: الحيرة.

وضع وجهه بين يديه، تراءت في الظلمة صور أسعد أمامه، بدا طيفها من بعيد تجلله هاله من ضياء، كانت تحلق في فضاء رحيب من بعيد التقى طيفاهما أمسكت يده دارا في الفضاء، تلاشت الصور عندما ربت عبد الرحمن على كتفه فتح عينيه رأى الأشياء ضبابية وغائمة، نهضا خارجين وقفا وراء الباب، وهما يهمان بالمغادرة وهو جالس في هدوء واستكانة كأنه لا يراهما تذكر فجأة حضورهما المفاجئ، نهض يترنح استوقفهما وراء الباب، حاولا الذهاب دون إخباره عندما شاهدا حالته المثيرة للشفقة، لكنه تشبث بهما لمعرفة ما دفعهما للمجيء، فاضطر حميد لسرد التفاصيل على عجل فردّ بأسى:

- **منتظركم بعد صلاة العشاء.**

عندما خرجوا جميعا توجه محمد في طريق مخالف لطريقهما قصد الناحية الغربية من المدينة متابعا الطريق الإسفلتي الضيق الذي يتعرّج، ويلتوي كأفعوان، ليصل إلى الماء ترجل من السيارة خلع حذاءه وجواربه رفع ذلذل بنطاله حتى ركبتيه، خاض في الماء بضع خطوات ثم توقف، كان بشوق جارف لرؤية صديقه ومعشوقه الذي لازمه حباً، وشوقا منذ وعى الدنيا، يأتيه في ساعات الكرب والضيق، يبثه شكواه، ليغسل بمائه روحه كما يغسل وجهه ويديه، شعر بألفة أكثر، بحميمية بنكهة جنون، وحب، وموت، دلبح نحو الماء كرع حسوات متتالية بلهفة من غير ظمأ، دس يديه المتلاصقتين كمنقار طائر في الفرات، ملأ راحتيه حفنة ماء، قرّبها من أنفه أغمض عينيه، خيل إليه أنّ رائحة جسدها الحليبي الأبيض قد تغلغلت في كل جزيء من جزيئات الفرات، رفع يديه فوق رأسه، تقاطر الماء على أمّ رأسه، بلله الماء، غمره شعور غريب، كأنه يلامس كرز نهديها، رضاب ثغرها، توت شفتيها، رمان الصدر.

لم يكن النهر ذات يوم مجرد مسطح مائي أزرق كما يراه الآخرون كان روحاً وحياة، زرقة نابضة بالحياة، عالم يكتنفه سحر، وغموض،

وجلال، ورهبة، انس، ووحشة، موت وحياة، اكتمل جلال الفرات بقلبه، وعينيه، وروحه عندما لامس وثارة جسدها الرّخف، روحها البريئة، عينيها العميقتين، الآسرتين، سريرتها الصافية العذبة كحليب النوق.

غبط الفرات عندما تناهى إليه قربانها المقدس، زاحفاً يتقتق[٨٩] من عليائه إلى زرقة الروح الأثيرية، ليتمازجا في طقس قداسة أشبه بالوثنية، وبجلالة كجلال الولادة، والنشوء المقدس. تغلغل الفرات في دياجير الروح انسرب في أقانيم النفس، في اللحظة التي عانق فيها قربانه المقدس.

حمد فراته الذي احتضن الخطيئة وروح شرور الأرض حين تناهى إليه شكري، فالشحناء والطهارة والقداسة لا تلتقيان في القلب ولا في الفرات الذي سيطهر نفسه من أدرانه وخطاياه سيذهب شكري كما الزّبد جفاء ويمكث عبق روحها، أريج جسدها الذي تضوع في الماء ليروي قلوب الناس والفرات، رافلة بالطهر والعفة، خلابة أخّاذة حية نابضة أبدا كروح أسعد لتعيدا تشكل الفرات في حيوات جديدة، تفككت روابطه البسيطة لتتشكل رابطة جديدة تغدو وشائج الروح بين جزئيات الماء ليغدو طرفاها ذرتين؛ واحدة من جسمها وأخرى من روحها وذرة من روح أسعد، كان يعرف أن علاقته مع الفرات قد تغيرت لم تعد ترتكز على البوح والشكوى بل صارت مناجاة أرواح تسبح في فضاء سرمدي لا مرئي، الفرات الذي أعاد قربانه المقدس حياً فاجأه مرة أخرى بعطاياه التي لا تنتهي.

هناك، على ذات الضفة كانت توق ومرح تجلسان تعتليان صخرة كلسية صفراء، تمدان رجليهما في لسان الماء الأرجواني والشمس تقترب بشغف لتطفئ لظاها وشوقها على صدره القاني وقد خفضت جناح الذل

---

[٨٩] التقتقة: الهوي من أعلى إلى أسفل على غير طريق.

له. كانتا تنظران إليه لأول مرة بعيني عاشق، حتى مرح نظرت إليه بعين هائم أورثتها توق حبه والتي أصابتها عدوى حبه من محمد. رأته كما لم تره من قبل محباً يبسط سلطانه على هذا الفراغ من الأرض، دنفاً يصارع سده الإسمنتي البليد لينفلت كطائر الفينيق فارداً جناحيه، محلقاً نحو عودة الروح من تحت الرماد، خارجاً من سريره الذي طال انتقاعه فيه.

❁ ❁ ❁

كان فضاء الغرفة محموماً تغيرت طبيعة الهواء لدرجة أنّ عائشة ومي شعرتا بضيق وكرب شديدين، كأن كائنا ما أفرغ الغرفة من هوائها وملأها بهواء لا يصلح للحياة، بكتا بعد أن سردت كلّ واحدة منهما انطباعها بثت الأخرى شكواها وحزنها لما حلّ بصديقتهما، وما عانته وهما قربها دون أن تفعلا ما يمكن لمساعدتها، ما سرّهما أنها خرجت حيّة ترزق ولم تنجح بمحاولة الانتحار عندما لم تجد وسيلة غير ذلك لتتخلص من شكري. لم تكن عائشة على اطلاع بكامل تفاصيل القصة لولا قدومها إلى مي التي سردت عليها حكايتها في ذلك اليوم، فأجهشت ببكاء مرير. تذكرت عائشة مأساة أمّها التي عانت الاغتصاب طيلة سنوات دون أن تدري، اغتصبت تحت وصاية عقد باطل، ساقه إليها صلال الذي أضفى ظلال الموت على العائلة ردحاً من الزمن، لم يكتف بقتل الأب جسدا وروحاً وأحال حياة الأم إلى موت على هامش الحياة، بل كان يسعى لقتلها ذاتها لولا أنّها كانت حذرة منه ومن نظراته البلهاء عندما يعود مخموراً طافحاً بالخمر حتى الثمالة ومنتشياً بفعل حبوب" ديازيبام" التي أدمن تعاطيها.

عندما توارد هذا الخاطر في ذهن عائشة وتذكرت يوم ذهبت إليه عند الحاجز لتجهز عليه رأت في عينيه توسلا ورجاء لكنها لم تأبه لم تفتر

همتها هيأت مسدسها وأفرغت ثلاث طلقات بقلبه ورابعة برأسـه لتنام بعدها مطمئنة من أنّه لن يعود محاولاً فتح الباب بعـد منتصـف الليـل ليغتصبها. لم تغضب يوم ثار حميد في وجهها وهو لا يعرف أنّها الملثم لم تردّ عليه بكلمـة لـيس لأنّهـا لم تُـرد كشـف هويتهـا فحسـب، بـل لأنّهـا أطفأت نيران ثأرها الذي ظلّ يؤرقهـا يأكـل نفسـها ولحمهـا دهـراً، وغـير ذلك لم يعد مزعجاً بالنسبة لها.



أصرّ حميد على عدم التطرق لأيّ تفصيل حول ما حدث قبل أن يصـنع محمد لهما إبريق شاي، وركوة قهوة لعبد الرحمن الذي احتساها بشـغف، كاد محمد يفقـد صـبره وهـو يشـاهد حميـد المأخوذ بـأوراده وأدعيتـه، لم يجـرؤ عـلى مقاطعتـه خشـية أن يغـادر الجلسـة مغضـباً، فحميـد الهـادئ الرزين سريع الغضبة سريـع الرضـا، كانـت حبّـات مسـبحته تنزلـق بحركـة رتيبة وعندما أنهى ورده، فرك المسـبحة بـين يديـه ودلسـها في جيـب ثوبـه الجانبي ضمّ يديه أمام وجهه وهـو يغمـض عينيـه، تـلا ادعيتـه فـرك يديـه ببعضهما ثم مسح وجهه، ولحيته المتدلية و وصدره العـريض بيـده اليمنـى ومحمد يرقبه بلهفة منتظراً بدء الحديث دون أن يطلبه مـن عبـد الـرحمن الـذي أدرك أنّـه غـارق في شروده، خمـن أن محـوره امـرأة مـا تشـغل بالـه ولاشك يستعيد معها لحظـات دفيئـة قضـاها معهـا كعادتـه في كـلّ قصـص الحبّ التي عاشها، بدأ حميد الحديث باستطراد عندما لمس اهتمام محمـد وشغفه لمعرفة كل ما جرى والذي تمحور حول اللقاء الذي تم على عجـل في البرية الجنوبية الجرداء حيـث التقـوا بعبـد النـاصر الـذي فـرّ مـن السـجن بمسـاعدة الجـيش الحـر الـذي داهـم سـيارة عسـكرية كانـت تقـل بعـض السجناء لنقلهم إلى العاصمة فأسروا بعض عناصرهـا، حـرروا السـجناء، كـان القرار الذي حملـه إلـيهم عبـد النـاصر مفاجئـاً بضرورة تـرك منطقـة الرّقـة

والطبقة والإيعاز لجميع كتائب ومقاتلي الجيش الحر لمغادرة المنطقة لتبقى آمنة بعد أن صارت ملاذا آمنا لنصف مليون من الوافدين من محافظات أخرى وأن أي تحرك عسكري قد يجلب الويلات على قاطنيها ولاجئيها، كانت الأوامر واضحة وصارمة بضرورة الالتحاق بالجيش الحر في حلب لمساعدة الجهات المقاومة هناك والالتحاق بشكل جماعات صغيرة لا تلفت النظر أو تثير الريبة.

وجد محمد نفسه تائها في خضم ضياع يلطه في جهات مختلفة لم يتصور نفسه يوماً دون رفقتهما، شعر بالحزن والأسى لمعرفته أنهما قررا مغادرة المدينة بعد أسبوع يرتبان فيه أمورهما ثمّ ينطلقان إلى حلب بعد أن هيأا ملاذاً آمنا لعبد الناصر إلى أن يحين السفر. لكنّه أحس بفرحة وسعادة حين أخبراه أنهم بحاجة مساعدته لجمع أدوات طبية وأدوية إسعافية عاجلة لنقلها إلى أقرانهم هناك. نهض مسرعاً فتح الخزانة والحقيبة الطبية ليستخرج منها ما يحتاجون إليه، وقد قرر أن يقوم بجولة على الصيدليات والأطباء الذي يثق بهم لجمع ما يستطيع جمعه، عندما تعالى رنين الهاتف جفل محمد مرتعدا من أن يكون الهاتف لأمر طارئ نظر إلى كاشف الرقم تنفس الصعداء عندما عرف أنه رقم مي، تغير وجهه، فاجأه صوت عائشة التي أخبرته أن مي مريضة، وأنها قلقة عليها، خرجوا مسرعين فاستل عبد الرحمن مفاتيح سيارة حميد من يده وقال وهو يغمز له:

- **استناني دقايق وراجع، مشوار ضروري.**

فصاح به حميد غاضباً:

- **إياك يكون مشوار زنى وفسق.**

أدار عبد الرحمن المحرك ومضى مسرعاً وهو يهز رأسه مبتسماً، في طريق غير طريق محمد الذي غادر بسرعة جنونية.

❁ ❁ ❁

كانت مي تختلج، يرتعد جسمها بخلجات قوية، جاحظة العينين، تتنفس بصعوبة، اضطر محمد لإعطائها حقنة مهدئة، جعلتها تغفو بعد لحظات على ذراع عائشة التي كانت تحتضنها، حملاها إلى الكنبة وتولت عائشة تغطيتها ثم أعدت فنجاني قهوة على عجل وأخبرته أن مي اتصلت بها، أخبرتها بشكوكها التي تؤرقها منذ فترة طلبت منها أن ترافقها إلى المخبر الطبي الذي صدر عنه التقرير، والذي عمل به خالد، بعد أن قصّت عليها القصة كاملة، أعطت المخبري التقرير، فتغير لونه وبدأ يتعرق ثم أنكره وادعى أنّه ليس من مخبره، واجهته بختم المخبر المطبوع على التقرير، جلس المخبري ساهما متوتراً للحظة، صعّدت لهجتها، تعالى صياحها وهي تهدده بتقديم شكوى للنقابة، اعتراه الخوف، حاول تهدئتها، ولم يجد بداً من الاعتراف بأنّ خالد عندما كان يعمل معه في المخبر توسل إليه بأن يغير معطيات التقرير لأنّ والدة مي تريد إجبارها على الزواج من رجل لا تحبه وهو يريد مساعدتها ليبعد الرجل عنها، ووعده بإخبارها بالحقيقة بعد أيام عندما تفسخ الخطوبة. لكنه استمر فاللعبة ليضمن أن مي ستبقى الحاضن للوالدة المقعدة كلا يؤول مصرها إليه، ولأنّه كان يضمر حقدا دفيناً لجاسم لمنته الفلاحي في ينحدرون هم من أصول برجوازية بائدة.

أرّث محمد سيجارة نفث دخانها بعصبية، وقال بنبرة حزينة:

- **عندما أخبرني أحد الأصدقاء أنّ خالد يعمل شبيحاً لم أصدق أنّه يجرؤ على قتل النساء والأطفال فقد كان يبدو مسالماً ولكنني أيقنت أنّ من يفعل هذا بأخته ليس مستغرباً أن يفعل الموبقات.**

حمل حقيبته، توقف وراء الباب تتبعه عائشة دامعة العينين، مدّ يده صافحها لأول مرة يداً بيد ولم تكفف يدها إلى صدرها كعادتها، ومضى دامع العينين منفطر القلب متجها إلى البيت.

❁ ❁ ❁

عندما فتحت مرح الباب فوجئت بهم جميعا وهم يقفون وراء الباب بوجل تكللهم رهبة وخشوع، و فوجئوا بها فقد شعروا لوهلة أنهم يقفون أمام شبح إنسان على الرغم من كونهم لم يكونوا يعرفونها قبلا باستثناء محمد، كانت ذابلة وحزينة بوجه ممصوص وجسد هزيل كأنّها غادرت عمرها نحو شيخوخة مبكرة بدا وجهها كابياً وغائماً لم يبق فيه سوى بقية روح ذاوية تكاد تفارقه، لم تنبس بحرف ابتعدت عن الباب لتفسح لهم المجال فدخلوا يتقدمهم محمد الذي استقبله والدها بترحاب مبالغ فيه وهو يحاول أن يبدو طبيعيا ليداري ما عاناه منذ أن وقعت الحادثة وبدأت الناس بلوك سيرة ابنته وما أثير حول علاقتها بشكري وما تلاه من تحقيقات قامت بها فروع الأمن التي اقتنعت أخيرا بادعائها أنهما كانا يناقشان بعض القضايا الإعلامية التي كان يريد نشرها حول قضايا الفساد وأنه انزلق من الجرف حاول التمسك بها فجرها معه.

كانت توق متشبثة بما قالته لجميع العناصر الذي زاروها للقيام بالتحقيق في المستشفى والبيت وقد قررت الجهات المعنية إرجاء الموضوع لوقت لاحق لانشغالها بقضايا الأحداث والحراك الثوري.

ساد الصمت للحظة فلكز عبد الرحمن حميد ليبدأ بالحدث فانبرى مبسملا وراح يسرد بعض الآيات والحكايات الصوفية وحبات السبحة تنزلق من تحت أصابعه الكبيرة الخشنة وأبو عاصم يراقبها بتوتر ووجل فقاطعه محمد الذي نفد صبره ليقول:

- **أنا أطلب يد الآنسة توق.**

تجمد أبو عاصم لوهلة وهو يحدق بالسبحة، بدت حالته رابكة جداً، عيناه توصوصان بتوتر، بلع ريقه وكأنه لم يصدق ما سمع، همّ يتحدث إلى محمد فقاطعه على عجل:

- **ابنتك شرف لمن يقترن بها، ولن يخدش ألماسها الصقيل ما حدث وما قيل.**



عندما انسحبت مي متجهة نحو المطبخ لتعد القهوة تبعتها توق بعد أن قرصت عائشة من خدّها وهي تغني:

- **يا شوق لفني بحضنك لف السيكارة بحيلِ.**

تزحزح عبد الرحمن مقتربا منها، أخذ يدها بين يديه وأمعن النظر في عينيها صامتاً، دنا أكثر فنظرت إليه مؤنبة وهي تعض على شفتها فلم يبالِ التقم شفتيها ثم لسانها الذي دفعته في فمه رضب ريقها العذب، ولم يتركها إلا عندما تعالى صوت وقوع صحن في المطبخ فتفلتت من قبضته القوية وهو يحاول أن يلف قوامها العبل بجسده الضئيل، اتجهت مسرعة إلى المطبخ فوجدت مي تجهش بالبكاء مؤنبة نفسها لتقصيرها بحق الثورة التي لم تواكبها بفنها وأنّها انكفأت على نفسها تعبر عن أحزانها بذاتية مغرقة، احتضنتهما عائشة بحنو وقالت:

- **اليوم سنبدأ عهداً جديداً يتعاضد فيه القلم والريشة والبندقية والمبضع.**



في الوقت الذي كانت فيه مآذن المدينة تصدح بالأذان كانت سيارة حميد قد قطعت المسافة متجهاً نحو الغرب مجتازاً مدخل المدينة وعند مكان قصي من الحاجز الأمني وقف حميد، أطفأ المحرك، والأنوار وبدا بالنقر بأصابعه على المقود فأمسك يده عبد الرحمن الذي شعر بارتباكه يتعالى ويزداد بفعل النقر المرتبك الرتيب كان القلق والخوف يعتصر القلوب خشية أن يكون أحد ما من السلك الطبي قد وشى بمحمد الذي زارهم يطلب مساعدات ومعونات طبية إسعافية دفع عبد الناصر جسده للأمام مقتربا من المقعدين الأماميين للسيارة ووضع يديه على كتفيهما فالتفتا إليه وقال:

- **تعرفون انو اعتقالكم مقرر بهاليومين الجايات، ومن المفروض نكون ضحايا ضحية تفجير إرهابي منشان يخلصون منا، وهذا خبر موثوق من عناصر من داخل الأمن.**

قهقه عبد الرحمن وهو يرفع رأسه عالياً وقال بشماتة:

- **بس يلقونا، خليهم يعتقلونا معناها!!**

وضع حميد يده على فم عبد الرحمن فكتم ضحكته، أشار إلى السيارة التي ظهرت من بعيد في المرآة لبثوا يرقبون أضواءها المنعكسة في المرآة على وجوههم وعندما توقفت خلف سيارتهم هيأوا مسدساتهم تحسباً لأي طارئ. خرج منها شبح رجل ضخم لم يتبينوا معالمه إلا عندما اقترب فصاح حميد فارداً يده:

- **أهلا بالحكيم، جبت المساعدات الطبية.؟!**
- **أومأ برأسه دون أن ينطق.**
- **طيب هاتها بسرعة.**

هزّ محمد رأسه رافضاً. أثار ذلك ريبتهم واستغرابهم نظروا في وجوه بعضهم بعضاً:

- **عبد الرحمن.؟! إذا سمحت تفضل إلى سيارتي.**

ترجل عبد الرحمن من السيارة قلقاً، تبعه، وهو يحاول معرفة ما يدور برأسه، وقد خلف رفيقيه يعتصرهما ذهول وتوجس حين تقدم من السيارة بدا له وجه توق يفيض صحة وألقاً، انحنى ليصبح قبالة النافذة ألقى عليها التحية وهو ينظر إلى محمد الذي أومأ له برأسه ليستقل المقعد الخلفي، فتح الباب وحين هم بالجلوس فوجئ بشخص يجلس في المقعد الخلفي لم يكترث وقد ظن أنه قد يكون أحد أشقائها، أرجع رأسه للخلف أغمض عينيه يستعيد لحظاته الدفيئة مع عائشة، ابتسم ابتسامة عريضة عندما شعر بيد بضة تلامس يده بحنو.

أدار محمد المحرك منطلقاً غرباً والأضواء تكشف الدرب بصعوبة، فقد كانت الشمس تؤذن بالشروق، لتلقي أشعتها على الطريق، وعلى البرية الجرداء أمامهم، وتوق تصدح بصوتها الرخيم وهي تشير للسيارة الأخرى لتلحق بهم:

من بعيد جت خيل العوادي وخيل فراتنا خيل الجهادِ

سماسرة الدم

- طيب ليش طلعت مظاهرة يا ابن الكلب!!؟. وأنت موظف بالدّولة، عم نعطيك معاش، وزيادة راتب وترفيعات، وطبابة.؟! يعني مواطن مدلل. مع إنكن ما بتستحقوا تعيشوا أصلاً، ورغم هيك عملناكن بشر وانتو حيوانات .

- سيدي آني، جابوني بالغلط.

- كزاب، بدكن حرية يا عرصات.؟؟ عم تاكلوا، وتشربوا، وتسافروا على كيفكن، شو بدكن حرية اكتر؟!.



